ابو الحسن الندوي

التفسير السياسي للإسلام

في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب





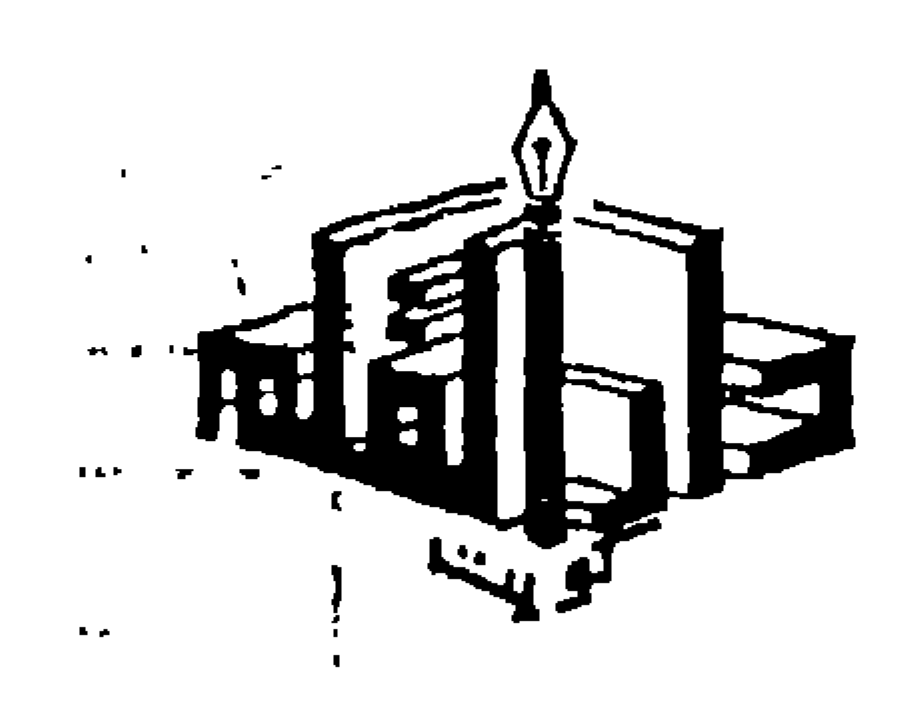
التفسير السياسي للإسلام



أبو الحسن علي الحسني الندوي

التفسير السياسي للإسلام

في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب



الطبعة الثالثة

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

دار القلم – الكويت – شارع السور – عمارة السور
ص . ب ٢٠١٤٦ – هاتف ٤٢٥١٦٠ – برقياً توزيعكو

الإهـــداء

اهدى هذا الكتاب الى من يرى أن رضا الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، والفـــوز بالجنـــة ، والنجاة من النار ، وموافقة الكتاب والسنة ، هى الغاية ، وكل ماعداها ـ من جهود ومحـــاولات ، وجماعات وقيادات ، ونظم وحكومات ـ وسائل تخضع للغاية ، وتستخدم لصالح الاسلام ، فيحب المرء لا يحبه الا لله(١) ، وينتصر لحركة او فكرة ، لا ينتصر لهما الا حبا للاسلام .

أهدى هذا الكتاب الى من يؤمن بان النعمة الوحيـــدة التى ختمت بشخصية ، هى نعمة « النبوة » التى ختمت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، اما ســـائر النعم فباقية ســـائرة ، منها نعمة العلم ، ونعمة الفكر ، ونعمة التحقيق ، فلا يحتكرها انسان ، ولا تختم بانسان « وما كان عطاء ربك محظورا » .

أهدى هذا الكتاب الى من يكون على استعداد دائم للانتقال من نافع الى انفع ، ومن صالح الى اصلح : ولقبـــــول الحق اذا اتضح ، والدليل اذا قام « فان الحق قديم » كما يقـــول عمـــر بن الخطاب رضى الله عنـــه فى منشـــوره للقضـــاء ـ فالرجوع اليه لا غضاضة فيه ولا بدعة .

---

(١) لفظ ورد فى حديث مرفوع متفق عليه

اهدى هذا الكتاب الى من يرى أن حق الملاحظة والنقد ، حق مشاع ، لا يحرمه ذو علم وصاحب فكر ، وأن عملية النقــد وابداء الملاحظات ، لا يطبق عليها قانون ((اتجاه واحد)) .

اهدى هذا الكتاب الى من لايسرع بالحكـــم على كتاب حتى يستوعبه فهما وقراءة ، ولا يستقبل بحثا باساءة الظن بنية صاحبه، والشك فى مراميه .

وصدق الله العظيم ((فبشر عباد الذين يســـتمعون القول فيتبعون أحســـنه ، أولئك الذين هـــداهم الله وأولئـــك هم أولوا الألباب (١) .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

---

(١) الزمر ١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

أما بعد ، فان الاسلام دين الله الأخير ، الذى ينكفل بهداية البشرية الى يوم يرث الله الأرض ومن عليها ، وعليه تتوقف نجدتها وخلاصها ، وصلاحها وفلاحها ، فلا بد — اذن — أن يبقى الى يوم القيامة ، يوجهها فى دينها ودنياها ، وينير لها الطريق فيما يتصل بأولاها وآخرها ، ومن ثم جاءت عقائده وحقائقه مقررة لا تتغير ، وشرائعه وأحكامه وقوانينه مستوفاة لا تقبل

النسخ والتعديل ، ولم تكن شريعته وحدها منزلة من الله ، بل ان حضارته هى الأخرى تقوم على الحقائق الأبدية الخـــالدة . حقيقة لا تحتاج الى التقرير .

ولكن هناك حقيقة اخرى ، هى ان الحياة متحركة متطورة ، مستمرة النمو والتغير ، وذلك من محاسنها، وليس من مساويها، وليس ذلك شذوذا عن الفطرة ، وانما هو اقتضاء الفطرة ، فهى تنتقل من طور الى طور ، ومن لون الى لون ، لأنهـا دائمـة الشباب والنشاط .

فكل شىء فى الحياة يتغير ، تتغير اللغات واللهجـات ، وتتغير أساليب البيان والتعبير ، ومنـاهج البحث والتفكير ، وتتغير الأسباب التى تثير القلق النفسى والاضطراب الداخلى ، وتتغير الوسائل التى تقاوم هذا القلق والاضطراب ، وتتغير أوضـاع التساؤلات التى تثور فى النفوس البشرية ، كما تتغير أوضـاع الاجابات عليها .

وتنحصر مسئولية أبناء الاسلام البررة المخلصين ، وانصاره وحماته من العلماء والمصلحين ، القائمين بعرضه والتعبير عنه ، فى هذا الوضـع المزيج ــ الذى تشـكله أبدية الدين وخلوده ، وتطور الحياة ونموها المستمر ــ فى أن يقوموا (كل فى عصره)

بعملية عرض الاسلام ومحاسنه وتعليماته بأسلوب يقوى ايمـــان أبناء عصورهم ـــ من جديد ـــ بهذا الدين الخالد، وحقائقه الثابتة، وعقائده الأبدية ، ويعيد الى نفوسهم الثقة بفضلها وحاجة البشرية والمدنية اليها ، وهذا ما أشار اليه سيدنا على ـــ كرم الله وجهه ـــ حينما قال : « كلموا الناس على قدر عقولهم ، اتريدون أن يكذب الله ورسوله »(١) وهذا ما صـــنعه متكلمو الاســـلام ، والعلماء الربانيون ، فى عصورهم المختلفة ، فقد قاموا بهـــذه المسئوليـــة الدقيقة حسب الأوضاع والملابسات التى واجهتهم ، جزاهم الله عن الاسلام خير الجزاء .

لكن هذا العمل دقيق وصعب بقدر ما هو واجب وضرورى ، فيجب على الذين يحاولون أن يقوموا بعملية عرض الاســـــلام وتفهيمه وتقريبه الى القلوب والأذهـــان ، أن يلازموا الحيطـــة والدقة ـــ على طول الطريق ـــ فى تحقيق غاياتهم واكمال مهمتهم، حتى لا يتكون ، على غفلة منهم أو عن غير ارادة وقصـــد لهم ، لدى الجيل الجديد ـــ الذى يراد تعريفه بحقائق الاسلام وترسيخ عقائده فى قلبه أو يقصد استخدامه لاعلاء كلمة الله ، ورفع منار

---

(١) وساق البخارى فى صحيحه قول على رضى الله عنه فى هذا المعنى بما يلى : « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ » ويروى مثـــل ذلك عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

الاسلام — « ذوق دينى » مختلف عن « الذوق الدينى » الذى كان يتسم به الجيل الاسلامى الأول ، بفضل تلقيه التربية فى أحضان النبوة مباشرة ، ذلك الذى توارثته الأجيال المتلاحقة بعده ، وحتى لاينحرف هذا الجيل فى مناهج تفكيره عن الجادة التى رسمتها النبوة على صاحبها الصلاة والسلام ، كما حدث مرات فى تاريخ الأديان القديمة والمذاهب والفرق الاسلامية الحديثة ، ان هذا الحدث لا يتكرر فى تاريخ الأديان والمذاهب ، ولكنه اذا حدث مرة ، لم يكن تداركه وتلافيه ممكنا بأى حيلة من الحيل ، والتاريخ يشهد بذلك . ان هذا « الذوق الدينى » انما ينبع من التأييد الالهى ، والتوفيق الربانى، والقوة القدسية، التى يكرم بها الأنبياء والرسل ، وهو أقوى قوة ، واعظم ثروة ، وأمضى سلاح ، وأغلى تراث ، لدى هذه الأمة ، انه سهل افساده ، ولكن لايمكن اصلاحه الا بالتعاليم النبوية الصحيحة ، والتربية الدينية العريقة، وصحبة الربانيين الذين يمثلون السيرة النبوية الأصيلة ولا تملك حكومة مهما كانت قوية وعظيمة — أو منظمة سياسية مهما كانت غنية وحكيمة — أن تتدارك هذا الانحراف عن « الذوق الاسلامى » الأصيل .

وظل هذا العمل الدقيق — عمل العرض الجديد للاسلام — يتم عبر التاريخ الاسلامى بطريقة حكيمة لم تحدث بين الجيل

المسلم المعاصر ، وبين العقائد والحقائق ، والقيم والمثل الاسلامية، تلك الفجوة العميقة الواسعة التى وقعت — فى تاريخ اليهودية والمسيحية — بين الشباب المثقف الذكى ، وتعاليم العهد العتيق ، والعهد الجديد، مما آثار الشكوك والشبهات الكثيفة فى قلبه تجاه تعاليم « الكتاب المقدس » وادى به الى الثورة عليها ، وضربها عرض الحائط ، وخيم الالحاد واللادينية على العالمين اليهودى والمسيحى ، وبالتالى منى العالم البشرى كله بأن يجنى ثماره المرة ، ولا يزال .

لكن القائمين بعرض الاسلام وتقديمه فى الأسلوب العصرى استطاعوا أن يتفادوا من هذه الورطة ، ومن أن يحدث ضعف فى صلة هذه الأمة الفكرية والعقلية بحقائق الاسلام الأولية ، وتصوراته الأساسية ، بل ازدادت ايمانا بها ، واذعانا لها ، واقبالا عليها ، وعلى ذلك فلم تمن هذه الأمة بما منى به الهنادك والفرس ، حيث ظلوا قرونا ، ولا يزالون ، يعضون على التقاليد والطقوس ، والأعراف الدينية والاجتماعية بنواجذهم ، بينما يئسوا من التطبيق بين الدين والعقيدة ، وبين العقل والعلم ، ومن جدارة دينهم لمسايرة الحياة البشرية المتطورة . والركب البشرى المتقدم ، ورأوا بقاء دينهم فى أن يكون على عزلة تامة من العلم والمعرفة ، وأن لا يرتفع عنه ذلك الركام الهائل من الجهل

المطبق والأوهام والأحلام الكثيفة ، الذى تراكم عليه ، وسد عليه منافذ الهواء والنور .

ومن ثم فهؤلاء المخلصون الذين قاموا بهذه المسئوليةالجليلة ، مسئولية العرض الجديد للشريعة الاسلامية عبر العصور الاسلامية ، يستحقون كل تقدير واعتراف وشكر ودعاء ، منا ومن الأجيال المتلاحقة ، حيث تفادوا بهذه الأمة من أن تقع فريسة الصراع بين الدين والعلم ، والحروب الدموية الحمراء ، التى تأججت نارها واشتد أوارها بين المعسكرين المتنافسين — الدينى والعلمى — فى القرون الوسطى فى العالم المسيحى ، مما اضطر العالم الأمريكى « درابر » (John William Drapper) أن يضع كتابه الشهير « الصراع بين الدين والعلم » Comfict Bettwen Religion and Science

وظل هذا الواجب العظيم المبارك المفيد يؤدى عبر التاريخ الاسلامى ، وقيض الله فى كل عصر من المجددين والمصلحين والمتكلمين ومن قام بعرض جديد للاسلام ، وتقديم عصرى لتعاليمه بكل جدارة ومقدرة وتوفيق .

وبجانب ذلك لم يخل عصر من العصور الاسلامية من أولئك العلماء الراسخين فى العلم ، المتذوقين للشريعة الاسلامية ،

المطلعين اطلاعا دقيقا على عقلية الجيل الجـديد ، والاتجاهات والملابسات التى يعيشها ، الذين راقبوا هـذا العرض الجـديد العصرى للاسلام مراقبة أمينة ، حتى لا يواكبه انحراف عن الصراط المستقيم ، وعدول عن الجادة التى وضع عليها سـيدنا محمـد صلى الله عليه وسلم هذه الأمة ، وحتى لايختلف هذا « الذوق الدينى » و « الفهم الدينى » ـ الذى يكونه هذا التعبير الجديد عن الاســلام ـ عن « الذوق الدينى » و « الفقـه الدينى » الاسلاميين الأصليين اللذين سيظلان « مثاليين » الى يوم القيامة، وابدوا ملاحظاتهم عن هذا العرض الجديد للاسلام فى غير محاباة وتردد ، مع كل تقدير لهذا العمل والاعتراف بقيمتـه ، ومن غير شك فى نية القائمين بالتجديد والتعبير الجديد ، ووضعوا الأصبع ـ بكل حرية ـ على الأخطاء والعثرات ، والتطرف أو المغـالاة التى وجدوها قد تطرقت الى هذا العمل الجليل ، وما حال بينهم وبين هذه الحسبة الدقيقـة وابداء الملاحظة الصريحـة عليه ، شهرة هؤلاء الكتاب والمفكرين العاملين فى مجال التقديم العصرى للاسلام ، ولا مكانتهم فى ما كان يتسم به هؤلاء المفكرون المؤلفون من زهد وتقوى وورع ، وذلك لأن رائدهم كان مجرد الاخـلاص والاحتساب ، فأعربوا عن آرائهم وملاحظاتهم وانطباعاتهم ومـا كانوا يتخوفونه من وراء ذلك من نتيجة سلبية سيئة ، فى كل اتزان

واقتصاد ، واخلاص وحياد ، غير مدفوعين بنزعة من النزعات .

وقد استقبل هؤلاء المفكرون والمجـــددون بدورهم هـــذه « المحاسبة العلمية » والمراقبة الدينية المخلصـــة ــ فى أغلب الأحيان ــ فى سرور وانشراح صدر ، وتلقوها بالقبول والشكر ، وعنوا بها عناية جدية ، واستفادوا منها فى عملهم فجعلوه أنفع وأجدى ، وأعدل وأكثر خيرا للأمة المسلمة وللبشرية جمعـــاء ، وظهور هذين النوعين من العلماء ظل مستمرا ومتصلا منذ فجر التاريخ الاسلامى ، وسيظل الى يوم القيامة ، كمـــا ينبىء بـــه الحديث النبوى الذى رواه البيهقى :

« يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »(١) .

والواقع أن وجود هاتين الطبقتين ضرورى ، وعلى تعاونهما العلمى المتبادل يتوقف بقاء هذا الدين سليمـــا ، محافظـــا على أصالته ، ونقائه ، بعيدا عن كل تحريف وعبث ، وافراط وتفريط ، وذلك هو الذى يغذى تطوره الفكرى والعقلى المستمر ، ويجعله صالحا لكل عصر ومصر .

منـــذ مطلع القرن التاسع عشر المسيحى ظهر فى العـــالم

---

(١) مشكلة المصابيح ، كتاب العلم ، الفصل الثانى .

الاسلامى — الذى كان يعــانى التــدهور الفكرى والانحطــاط السياسى — اضطراب فكرى عجيب[1] بفعل نفوذ أوربا السياسى وتقدمها المادى الحثيث ، وغزوها المتتابع ، وانتصاراتها المتواصلة فى مجال العلم والعلوم التجريبية . مما جعل القيــــام بعملية « عرض الاسلام فى الأسلوب العصرى » فرض كفــاية ان كان مندوبا قبل ذلك ، فهؤلاء الشباب المثقفون ولا سيما الذين سافروا الى أوربا فى أواخر القرن التاســع عشر أو فى أوائل القــرن العشرين ، واحتكوا بأهلهــا ، وأمكنهم أن يختلطوا بالحكــام الانجليز أو المفكرين الغربيين ، قد تزعزعت جــذور العقــــائد الاسلامية فى قلوب كثير منهم بل تنكروا لها واشمأزوا منهــا ، ووقع منهم عدد كبير فريسة الردة الفكرية والحضارية[2] .

هنالك نهض فى مختلف نواحى العالم الاسلامى كتاب وعلماء حاولوا أن يواجهوا هذا الموقف الحرج ، وتقلدوا مسئولية الدفاع عن الاسلام ، والشريعة الاسلامية ، والحضــــــارة الاسلامية ، وتاريخ الاسلام والمسلمين ، ونظام حكمهم وتعليمهم . وساهموا فى

---

(١) اقرأ للاطلاع على مراحل ارتقائه وتطوره فى الأقطار الاسلامية كتاب المؤلف « الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية فى الاقطــار الاسلامية » طبع دار القــــلم الكويتية ، الطبعة الثالثة .

(٢) يرجع إلى رسالة المؤلف السائرة « ردة ولا أبا بكر لهــا » .

القيام بهذه الخدمة المشرفة ، فى كل من تركيا ، ومصر ، والشام ، والهند ، كل حسب عقليته وثقافته ، ودراسته وتربيته ، وجدارته ومقـدرته ، وعلى الرغم من الاعتراف بقيمة هـذه المحـاولة وجدواها — فقد انتشلت عددا وجيها من النفوس الصالحة ، من حماة تلك البنبلة الفكرية ، والردة الحضـارية التى كانت تهب أعاصيرها الهوجاء فى العـالم الاسـلامى ، فانهـا كانت تتسم بالأساليب الدفاعية والاعتذارية ، تبدو كأنها ترمى أولا وقبل كل شىء الى ازالة الفجوة — أو تضييقها على الأقل — بين الحضارة والقيم الاسلامية والحضارة والمثل الغربية ، كما كانت تنم عن تقبل المصطلحات السياسية والاقتصادية الغربية على علاتها أو تطبيقها على التعاليم الاسلامية والتاريخ الاسلامى ، دون تحفظ واحتياط . وربما نجدها تنطوى على تأويل بارد وتفسير غريب للاسـلام وتعاليمه . كأنه يهدف تقريب التعاليم الاسـلامية الى المقررات الغربية أو المفاهيم التى آمن بها الغرب .

ومن ثم حاسب الراسخون فى العلم من العلماء المعاصرين هذه المحاولة — مع الاعتراف بقيمتها الجزئية — محاسـبة علمية وابوا أن تتقبل الأمة المسلمة كلها هذا « الفهم الدينى » الذى تنشئه هذه الكتابات ، وأخذوا بأيدى جماعة كبيرة من الشباب المسلمين المثقفين — الذين كانوا قد تأثروا بذلك — الى الصراط المستقيم ،

وعلى ذلك فقد سدوا منافذ « التحزيف العالمى » ، التى شنحتها كتابات هؤلاء الأفاضل و « بحوثهم » .

وقد تم اكبر قسط من هذا العمل الذى يمتاز بمتانته وعمقه واعتداله ، فى الهنـــد التى كانت اكبر مسرح للصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، بحكم كونها خاضعة خضوعا مباشرا لسيطرة الاستعمار البريطانى ، وقد كانت الطبقة المثقفة المسلمة ، والشعب المسلم الهندى يحمل الشىء الكثير من روح المقـاومة وقوة التماسك أمام الزحف الغربى المعنوى المدمر ، وذلك بفضل وجود مراكز التعليم الدينى والثقافة الاسلامية القوية فى شـــبه القارة الهندية ، وبتأثير العلمـــاء الربانيين ، وأصـــحاب القلوب المشرقة الصافية ، والحياة الايمانية الجميلة الجـــذابة ، المؤثرة للآجلة على العـــاجلة ، والتطوع والاحتســــــاب ، على الرواتب والمناصب ، الذين لم تؤثر الحضـــارة الغربية وقيمها ومثلهـــا فى حيـــاتهم وتفكيرهم ، ثروة لم تكن متوفرة فى كثير من البــــلاد الاســـلامية والعربية ، أو كانت هذه الروح قد ضعفت فيهـــــا واضمحلت من أجل اضمحلال هــــذه العوامل والمؤثرات منـــذ مدة طويلة .

وفى ناحية أخرى ، قد ملأ قلوب الشعب المسلم الهنـــدي

كراهية وسخطا ما واجهه من اخفاق حرب الاستقلال المستميتة في ١٨٥٧م التي قادها ضد الحكومة الانجليزية ، والشعب البريطاني الأوربي المسيحي الذي كان يمثل هذه الحضارة وهذه الفكرة ، وهذه الفلسفة للحياة ، وكان يحمل لواءها ويتبنى الدعوة اليها ، وقد انبثقت من هذه الكراهية والسخط حركة الخلافة الجبارة ، وحركة رفض الموالاة مع الانجليز القوية في الربع الأول من القرن العشرين ، وكل ذلك حال بين الشعب المسلم الهندى وبين انجرافه مع تيار الالحاد والردة الحضارية الذى كان ينطلق ويتدفق بكل قوة من اوربا .

كانت مقاومة المفاهيم والقيم الغربية على قدم وساق تؤدى دورها فى لون خاص ، اذ استرعى الاستاذ الكبير السيد أبوالأعلى المودودى في منتصف هذا القرن انتباه الطبقة المثقفة من المسلمين بمقالاته القيمة التى كان يكتبها فى مجلته الغراء « ترجمان القرآن » الصادرة من حيدر آباد ـ الهند ، فى نقد الحضارةالغربية ، ونظام الحياة الغربى ، المقالات التى تتميز بأسلوبها الهجومى ، ونقدها اللاذع لحركة « التقدمية » و « والتجدد » وفكرة « القومية » المتطرفة التى نجمت وباضت وفرخت فى حضن الثقافة الغربية ، وكذلك طرق موضوعات وقضايا فى صميم الشريعة الاسلامية ، والقوانين الاسلامية ، تلك المباحث والقضايا الهامة التى استهدفت

لهجمات « المتجددين » بصفة خاصة ، وسطر قلمه حولها مقالات قوية ، مؤثرة ، معضدة بالدلائل ، أمثـال الربا ، والحجـاب ، والجهاد والأضحية ، والرق ، وحجية الكتاب والسنة ، والأحوال الشخصية وما اليها من المسائل الهامة ، وسـيكون من الاجحاف الكبير اذا لم نوف حقه من الاعتراف بما لعبته مقالاته هـذه — التى ظهرت فيما بعد فى صورة كتب ورسائل — ومؤلفاته ورسائله المستقلة من دور رائع فى اعادة الثقة الى الطبقة الذكية ، المثقفة بالثقافة الغربية ، بالاسلام وبقيمه وتصوراته ، وفى تخليصهـا من « مركب النقص » و « نفسية الهزيمة الداخلية » حيـال الاسـلام وتعاليمه ، مما جعل بعض الكتـاب يدعوه « متكلم الاسلام » .

ولكان من حسن حظ الاسلام وسعادة جد المسلمين لو جعل الأستاذ المودودى هذا العمل وحده نصب عينيه وجند له مواهبـه الفنية ، ووقف عليه حياته العلمية الخصبة ، ولكنه هب يمارس عملا آخر نستطيع أن نسميه (الصياغة الجديدة للفكر الاسلامى) واعتبره أساسا فكريا لنهضة المسلمين ، ولجمع كلمتهم ، وللجماعة الاسلامية ، ونعنى بذلك بصفة خاصة كتابه المستقل الذى أسماه « المصطلحـات الأربعـة فى القرآن » الذى فسر فيه تلك المصطلحـات القرآنية الأربعة التى يدور عليهـا الاسـلام ،

وتقوم عليــه تعاليمه ودعوته ، واليهــا تستند « اقامة الحكــم الاســلامى » أو « اقامة الدين » تفســيرا خاصــا يتميز بالطابع السياسى ويدور حول « حاكمية الاله » و « سلطان الرب »يحدد علاقة العبد بربه فى مفهوم خاص وفى حدود معينة وينحصر به غرض نزول القرآن والدعــوة الاسلامية فى تأسيس « الحكــم الاسلامى » و « اقامة الحكومة الالهية » فحسب .

وكان له موقف خاص هى نتيجــة طبيعية منطقية نحــو « الوسائل » و « الغايات » والعبادة والذكر ، والأركان الأربعة العمليــة .

والكتاب الذى بين يدى القارىء محاولة مخلصة ترمى الى الاعراب عن « خواطر » و « خلجات » كانت تساور النفس من مدة طويلة ، وعمل بالوصية النبوية « الدين النصيحة » .

وقد أجلنا هذا العمل سنين طوالا رغم حوافز ملحة كثيرة الى تحقيقها وأسئلة كانت تتردد من جهات مختلفة عن الجمــاعة وأسسها الفكرية ، وعن طبيعة الاختلاف لها ، وأســـبابه ، والكتابة فى هذا الموضوع شائك دقيق ، فله اتصال وثيق بمجموعة حبيبة من الاخوان الكرام ، والزملاء الفضلاء الذين يساهمهم المؤلف فى كثير من مجالات العمل الاسلامى ، والكفاح فى سبيل القضايا

الاسلامية ، واتصال وثيق بالحركة التي لا ينكر فضلها في ايقاظ الفكر الاسلامي ، واعادة الثقة الى نفوس كثير من الشباب بصلاحية الاسلام ، والقوة الكامنة فيه للقيادة في هذا العصر ، وكذلك كان المؤلف لا يأمن أن يستغل هذا البحث لبعض مصالح سياسية أو حزبية ، أو يحمل ذلك على اتجاهات شخصية ، أو ردود فعل لا يسلم منها الانسان الا اذا عصمه الله .

واذا كان هذا هو الشأن ، فالحديث في هذا الموضوع دقيق محرج ، ومثير للتشككات والتساؤلات الكثيرة ، وقد سهل على الناس الاسترسال اليها والتوسع فيها ، وصعب عليهم حسن الظن بصاحبه والتماس العذر له ، وقد طال العهد بالنقد البرىء النزيه، المجرد من الأغراض السياسية والدوافع الشخصية، الذى لم يكن يبتغى به الا وجه الله ، وحب هذا الدين الذى هو مصدر كل خير وسعادة ، وعزة وقوة ، وايثاره على الأشخاص والجماعات ، والرئاسات والقيادات ، وعلى أصحاب المواقف المحمودة ، والمآثر الجليلة في الدعوة والتربية ، والجهاد والبطولات ، كما كان شأن ائمة الجرح والتعديل من المحدثين ، في أمر كبار الصالحين ، والزهاد والمتقنين ، وائمة فن التزكية والتربية وامراء الجيوش الاسلامية ، وقادة الفتح ، وخلفاء

المسلمين(١) .

وقد أضاف الى هذه المشكلة أن منهج المؤلف الذى التزمه فى تأليفه كان منهجا علميا يتسم بالايجابية والهدوء ، والابتعاد عن المسائل الخلافية والمناقشات اللفظية ، واذا كان لابد من ذلك تعرض له جانبيا(٢) ، ثم عاد الى خطه الأول من الحديث فى المبادىء والأسس ، والأهداف والغايات ، ولم يكن من السهل عليه ، والمرغوب له ، العدول عن هذا المنهج الذى آثره لنفسه وحافظ عليه طوال حياته(٣) .

ولم يقدم المؤلف الى هذا البحث الا حين عرف وعاشر كثيرا من الذين تخرجوا فى المدرسة الفكرية التى تقوم على كتابات الأستاذ المودودى وحدها ، وتعتمد على فهمه للدين ، وتفسيره له ، ورضعوا بلبانها ، ونشأوا فى أحضانها ، لا يدينون فى ثقافتهم الدينية وفهمهم لحقيقة الدين لمدرسة دينية أخرى — بمعنى المدرسة الواسع — او لمكتبة اسلامية أخرى — بمعنى المكتبة

---

(١) يرى القارىء نماذج رائعة من هذا النقد الصريح الأمين فى كتب الجرح والتعديل مثل «كتاب المجروحين» لابن حبان، «وميزان الاعتدال» للذهبى ، ومقدمة صحيح مسلم .

(٢) كما فعل فى كتاب «النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن» .

(٣) يستثنى من ذلك كتابه « القاديانى والقاديانية » وهو الكتاب الوحيد الذى الفه فى الرد على طائفة مارقة تدعى الاسلام .

الواسع — واذا كان لهما نصيب فى عقليتهم وثقافتهم الدينية ، فهو نصيب ضئيل سطحى ، وأفزعته اتجاهات فكرية ، وفهوم وتفسيرات للذين بدت طلائعها فى الحديث والكتابة ، والفكر والتأليف ، والعمل والتطبيق ، وخاف أن تنشأ طبقة أو مجتمع فيه عدد كبير من الشباب الأذكياء المثقفين ، والعاملين لمجد الاسلام المخلصين ، من أصحاب الهمة العالية ، والنظر البعيد ، والايثار وروح التضحية ، فى خدمة الاسلام والمسلمين ، على منهج يختلف عن المنهج الاسلامى الأول فى الروح والدوافع ، والنفسية والعقلية، والأهداف والغايات ، والمثل والقيم ، ويضعف ما جاهد له الرسول وأصحابه ، من اخلاص الدين لله ، والعمل للآخرة ، وروح «الايمان والاحتساب»(١) المسيطرة على الحياة كلها ، السارية فى الأعمال والتصرفات بأسرها ، ويتحول هذا الكفاح

---

(١) تشترط الأحاديث الصحيحة الكثيرة « الايمان والاحتساب » لوقوع الأعمال الصالحة — حتى الفرائض والواجبات — موقع القبول عند الله ، واستحقاق الفاعل للثواب والأجر عليها ، جاء فى صحيح البخارى « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » « ومن قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » ، وجاء بيان « الايمان والاحتساب » فى رواية للبخارى كما يلى : « رجاء ثوابها وتصدق موعودها » وتلك هى روح الأعمال ، والقوة التى تحرك الأمة للعمل ، والاحتفاظ بهذه الروح الى يوم القيامة مسئولية عظيمة على عاتق الدعاة والمصلحين فى هذه الأمة .

الى مجرد عملية تنظيم جماعى ، أو محاولة الحصول على الحكم والسلطان للمسلمين ، وقد يكون تحولا لا رجعة بعده الى الأصل والمصدر ، كمـــا جرب ذلك مرارا فى تاريخ الأديان والفرق ، والدعوات والحركات ، فأقبلنا ــ مضطرين علم الله ــ على التنبيه على هذا الخطر ــ ولو كان غامضا أو بعيدا ــ فالحب يبعث على الاشفاق ، والنصح يدفع الى الانذار .

والمؤلف يحمد الله على انه وفقه لتأليف هذا الكتاب فى حياة الأستاذ المودودى ، فقد وضعه فى رمضان ١٣٩٨ هـ (اغسطس ١٩٧٨ م) ، وصدر من المطبعة فى المحـرم ١٣٩٩ هـ (ديســمبر ١٩٧٨ م) ، وبادرت بارسال نسخة منه مع رسالة شخصية رقيقة اليه اعتذر فيها عن هذا النقد العلمى الذى كان رائده الاخلاص والاشفاق ، والنصيحة لله ولرســـوله ولدينه ، وابداء بعض الملاحظات عن بعض تحقيقاته وتعبيراته ، وقد ظل الطرفان على صلات ودية ، وحسن ظن كل واحد بصاحبه ، واعتراف وتقدير ، وجـــاءنى رد لائـــق بمقـــامه العـــلمى والدعـــوى ، وحســن تلقيـــه للبحـــوث العلميـــة ، كتبهـــا فى ٢٣ مـــن يناير ١٩٧٩ م من لاهور ، يشكر فيهـــا على هذه الملاحظات ويدعو المؤلف الى مراجعة سائر كتاباته ومؤلفاته ، وابداء مايتخوف منه على الفكرة الدينية الصحيحة ، ويقول : « اننى لا أســتطيع ان

أقول أني سأوافق عليها تماما ، ولكني ســـأتأمل فيها ، وانني لا أعتبر نفسي فوق مستوى النقد ، واختلاف وجهـــات النظر » ، وظهرت للكتاب طبعة فى باكستان اطلع عليها أعضاء الجماعة الاسلامية ، وتناول الكتاب المجلات والصحف الباكستانية ــ بمــا فيها المجلات والصحف التى تعتبر لسان حال الجماعة ــ بالنقــد والتقريظ وعلقت عليه ، كما تحدثت عن الطبعة الهندية الصحف والمجلات الاسلامية التى تصدر فى الهند ، وبعض مجلات الجماعة وصحفها .

وفوجىء العالم الاسلامى وفجع بوفاة هذا المفكر الاسلامى الكبير فى ٢٢ من سبتمبر ١٩٧٩ م ، وفوجىء المؤلف بالنبــــأ وهو فى دلهى فى حفلة المجلس الاستشارى للجماعات والقيـــادات الاسلامية فى الهند ، وشاء الله أن يكون بجوار زملائه واصــدقائه أعضاءالجماعةالاسلامية الهندية،وهم من أنشط اعضاء هذا المجلس الاستشارى العاملين ــ صباح يوم الأحد غرة ذى القعدة ١٣٩٩ هـ (٢٣ من سبتمبر ١٩٧٩ م) ويلقى كلمة عزاء وتأبين فى احـــدى حفلات هذا المجلس التى مثلت فيها كل المنظمـــات الاســـلامية السياسية وحضرتها شخصيات الشعب الاســـلامى البـــارزة ، بمناسبة معركة الانتخابات القادمة للبرلمان الهنــــدى ، ويدلى بحديث ضاف على اثر عودته من العاصـــمة الى مقر عمله ، من الراحل العظيم ، لمندوب المعهد العالى للدعوة والفكر الاســـلامى

ندوة العلماء ـ لكهنئو(١) ، وفى تفصيل أكثر لمندوب صحيفة ندوة العلماء الأردية « تعمير حياة » ، يذكر فيه صلته بالمرحوم الاستاذ المودودى التى يرجع تاريخها الى الثلاثينات الأولى من هذا القرن المسيحى ، ومساهمته اياه فى الدعوة والفكر ، مع مقتطفات من رسائله ، تلقى ضوءا على ما كان بينهمـا من صـداقة وثقـة وتقـدير .

والمؤلف الآن يحمد الله على انه لم يضطر الى نشر هـذه الملاحظات النقدية على اثر وفاة الأستاذ المودودى ، وان كان الحق حقيقا بأن يقال فى الحياة وبعد الممات ، وقد جرى على ذلك كثير من علماء الاسلام ، فأبدوا آراءهم الحرة وملاحظاتهم الجريئة عن كبار الراحلين بعد وفاتهم ، ولم يشعروا فى ذلك بحرج أو اساءة الى الراحلين ، والحق أولى من الرجـال ، ولكن ابداء ما يريب ويحيك فى الصدر فى حياة من يتصل به هذا التعليق أو النقـد ، أولى وأجمل ، وأيسر واسهل ، من ابداءه ، بعد وفاته بأيام وشهور ، والله المسئول أن يجزل له مثوبة الدعاة والمجاهدين ، ويغفر لـه الزلات التى لا يخلو عنها المتحرون للحق من الكتاب والمفكرين ، والعلماء والمؤلفين .

---

(١) وقد ظهر هذا الحديث فى صحف الندوة العربية وبعض المجلات فى العالم العربى .

ونرجو أن اخواننا الذين ينتمون الى « الجماعة الاسلامية » سيكونون فى مقدمة من يرحب بهذا الكتاب . ويقرأوه قراءة جد وامعان ، ولا يسارعون الى اتهام هـذا العمل بعصبية حزبية ، أو بنزعة شخصية ، او ارضاء حاجة ذاتية، ولا يرون فيه معارضة للحركة الاسلامية ، أو محاولة اقامة الحكم الاسلامى الذى بدت تباشيره ساطعة فى الأفق ، ويجب أن يستبشر به كل من يحب هذا الدين ، ويسعى لمجد هذه الأمة ويعمل لانهاض الاسلام والمسلمين .

والذين يحاولون أن يخدموا الدين بكل جد واخلاص ، ولا يريدون الا اعلاء كلمة الله ورفع شأن الاسلام ، وينشدون الحق والصواب ، ويحرصون على تصحيح « الفهم الدينى » وتصعيده واكماله ، والحق هو المقياس الوحيد لديهم – أولا وأخيرا – لا جماعة من الجماعات – مهما كان وثيق الصلة بها – ولا فرد من الأفراد – مهما كان عظيما عنده – فانهم دائما يتلقون النقد الايجابى البناء ، والآراء والتوجيهات المخلصة مهما خالفت آراءهم ، بصدر رحب ، وقلب منشرح .

وكانت هذه الحسبة العلمية المخلصة النزيهة ، فى طليعة العوامل التى صانت الأمة المسلمة عن الانحراف عن الجادة ، والتحريف للدين والشذوذ الجماعى ، والعثرة المردية ، فى تاريخها

الطويل ، ورحلتها الشاقة الشاسعة فى ميادين الاجتهاد ، والتجربة ، والاستنباط والاستنتاج ، واجهاد الفكر والرأى ، ويرجع اليها الفضل فى تلقيح الأفكار ، وتنقيح الأنظار ، وتوسع المكتبة الاسلامية الفقهية التوسع الذى لا نظير له فى تاريخ الديانات والثقافات ، ودفع الحرج عن الأمة ، وانارة السبيل للسالكين ، وحفظ القادة والزعماء ، والمفكرين والعلماء عن الافتيات فى الرأى ، والاعجاب بالنفس وادعائهم أو ادعاء اتباعهم العصمة لهم ، وحفظ الأمة عن أن تقع فريسة لغلو او تطرف أو شذوذ أو عثرة .

وقد فقدت هذه الحسبة ــ العلمية الدينية ــ أو ضعفت ضعفا كبيرا فى ديانات أخرى ، خصوصا فى المسيحية ، فكانت فريسة تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، ونشأت أجمات كثيفة ، وغابات مخيفة ، على أديم هذه الديانات توارت عنها اصالتها وتعاليمها الأولى ، ولذلك شددت الشريعة الغراء على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقيام بهما فى كل زمان ومكان ، وحذرت من التوانى فيهما والمحاباة لأهل الوجاهة والسلطان ، وجعلت « كلمة حق عند سلطان جائر » أفضل الجهاد ، وقام به المسلمون ، وخصوصا علماؤهم بهذه الفريضة فى كل زمن فاسد وحكم جائر ، وسمح له أمير

المؤمنين عمر لكل ضعيف ومغمور ورحب به ، فقال : « لا خير فيهم اذ لم يقولوها لنا ، ولا خير فينا اذ لم نقبل»(١) وقال مرة : « امراة أصابت ورجل أخطأ »(٢) .

ولا يمنع من هذا التنبيه على خطأ أو زلة ، والارشاد الى الأنفع الاصلح ، أو الأقوم الاسلم ، تبوء من تعرض لهذا الخطأ الاجتهادى أو السهو والنسيان اللذين هما من خصائص الانسان مكان قيادة ، أو اشتغاله بمصلحة اجتماعية للأمة ، أو سلامة نية ، أو غناؤه فى كفاح أو نضال ، فقد كان الصحابة رضى الله عنهم ينبهون افضل الرسل وخير البشر صلى الله عليه وسلم على السهو ، وقد قال ذو اليدين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صلى الرباعية اثنتين : أقصرت الصلاة أم نسيت يارسول الله ؟ (٣) وعزل أمير المؤمنين عمر — وهو أعرف المسلمين بمصالح

---

(١) كتاب الخراج للامام ابى يوسف ص ٧ .

(٢) أخرج عبد الرازق عن عمر أنه قال « لا تغالوا فى مهر النساء : فقالت امراة : ليس ذلك لك يا عمر ان الله تعالى يقول (وآتيتم احداهن قنطارا) فقال عمر : امراة خاصمت عمر فخصمته » واخرجه الزبير ابن بكار بلفظ « امراة أصابت ورجل اخطأ » (راجع نيل الأوطار ج ٦ ص ١٧٠) .

(٣) روى الترمذى فى الجامع الصحيح باسناد عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم انصرف من اثنين ، فقال ذو اليدين أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق ذو اليدين ؟ ، فقال الناس نعم . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين الأخريين ثم سلم ، ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم كبر فرفع فسجد مثل سجوده أو أطول ، سنن الترمذى أبواب الصلاة ، والحديث فى الصحيحين والموطأ .

الاسلام والمسلمين ـــ سيدنا خـــالدا فى معركة اليرموك ، وهى المعركة الحاسمة المصيرية فى تاريخ الاسلام ، ونصب أبا عبيدة مكانه ، ولو اخذ المسلمون فى ماضيهم عدم احداث التشويش فى صفوف المسلمين بعين الاعتبار وكفوا عن التنبيه على الزلل والخطأ، لانقطع هذا التيـــار الحيوى المبـــارك من حركة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والحسبة فى الدين ، والشهادة بالحق ، عن جهاز الأمة الاجتمـــاعى والخلقى ، ووقف القلب عن توزيع الدم الصحيح الى الشرائين والعروق ، وكان ما يعقب ذلك من التباس الأمور على أهل العلم والرأى ، وانجراف العـــامة للتيارات ، واختفاء كثير من حقـــائق الدين ، أعظم وأجل من اعتراف هـــذا القائد أو الامـــام أو العبقرى بخطئه فى التعبير ، أو تقصيره فى الفهم أو التفهيم ، فان العصمة لله وحده ، وكل يؤخذ من قوله ويرد الا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما « الجماعة الاسلامية » فهى أولى بالعمل بهذا المبـــدأ فدستورها الأساسى ينص على ذلك فيقول :

« لا يعتبرن ـــ احد ـــ احدا معيارا للحق ، الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يظنه اعلى من ان يناله احد بالنقد او يجد فيه ماخذا ، ولا يسوغ لأحد ان يخضع لآخر عقليا وفكريا ، بل يجب

عليه أن يقيس كل انسان بهذا المقياس الالهى الكامل ، ويضعه بعد القياس والوزن فى مكانه الذى يستحقه»(١) .

ونحن نستبعد جدا من الجماعة التى كان منطلقها من النقد الجرىء الشامل لكل العصور الاسلامية ، والطبقات الاسلامية ، وتقييم الحركات والجهود تقييما حرا بعيدا عن كل عصبية جماعية واحكام تقليدية ، أن يكون عند اعضائها فى الداخل أو اصدقائها فى الخارج ، تعظيم يبلغ حد التقديس لمؤسسها والداعى اليها ، وأن تكون عنـدهم حسـاسية زائدة فى كل ما يوجه له من نقـد أو ملاحظات أو مآخـذ(٢) .

وقد ضرب الاستاذ ابو الأعلى المودودى لذلك مثلا عمليا حينما وضع كتابه « التجديد واحياء الدين » (باللغة الأردية) الذى تناول فيه مآثر عدد من كبار رجال التجـديد والاصلاح فى تاريخ الاسلام بالنقد والتحليل ، ولم يحل بينـه وبين أن يبـدى

---

(١) دستور الجماعة الاسلامية الهندية ــ معدلا ــ طبع المكتبة الاسلامية المركزية .

(٢) كانت مفاجأة حقا للمؤلف حين تلقى رسـائل حانقة تنبىء عن استياء شـديد ، ونقـد لاذع من عـدد من المنتمين الى الجمـاعة فى الهند على اثـر صـدور الطبعـة الأردية لأنه كان يتوقع منهم أن يكونوا أوسع صدرا ، وأكثر احتمـالا من غيرهم من غلاة المنتسبين الى جماعات أخرى ، وأنهم يميزون بين الخلاف الشخصى الحاقد والاختلاف المبدئى الهادف .

آراءه وانطباعاته نحو هؤلاء الاعلام ، عظمتهم وشهرتهم ، وعلو مكانتهم عند الناس .

وهذا الكتاب الذى هو بين يدى القارىء الكريم ، محاولة متواضعة فى هذا الاتجاه الذى سار فيه الأستاذ أبو الأعلى ، ومعذرة ، فلا يطبق قانون « اتجاه واحد » (One way Traffic) الذى يعمل به فى تنظيم حركة المرور ، على النقد العلمى ، والبحث عن الأصلح الأنفع ، وعرض حصيلة الدراسات ، وعصارة التفكير ، ولو طبق هذا القانون على عالم التفكير والتأليف لشل الذهن الانسانى ، وتعطلت الحركة العلمية ، ووقف سير الاصلاح والتجديد ، والموافاة بالمفيد الجديد ، الى الأمة التى هى كشجرة طيبة أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

١٣ من ذى القعدة الحرام ١٣٩٩ هـ

٩ اكتوبر سنة ١٩٧٩ م

رای بریلی ، (الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

هل بقيت المصطلحات الأربعة القرآنية مجهولة مغمورة عبر قرون متطاولة ، وغابت عن الناس روح الاسلام الحقيقية ؟

يحاول المؤلف الشهير والمفكر الاسلامى المعاصر الأستاذ أبو الأعلى المودودى مؤسس « الجماعة الاسلامية » فى كتابه المعروف « المصطلحات الأربعة فى القرآن » أن يؤكد — وهو يتحدث عن كلمات : « الاله » و « الرب » و « الدين » و « العبادة » — ان هذه الكلمات القرآنية والمصطلحات الاسلامية الأساسية ، كان يفهمها جيدا كل من كان يخاطبه القرآن لدى نزوله ويدرك أغوار معانيها الأصيلة ، لأن القرآن عربي وكان المخاطب عربيا ، يقول :

« لما نزلَ القرآن فى العرب وعرض على الناطقين بالضاد ، كان حينئذ يعرف كل امرىء منهم ما معنى « الاله » وما المراد

بـ « الرب » لأن كلمتى « الاله » و « الرب » كانتا مستعملتين فى كلامهم منذ ذى قبل ، وكانوا يحيطـون علما بجميـع المعانى التى تطلقان عليها ، ومن ثم اذا قيل لهم : لا الـه الا الله ولا رب سواه ولا شريك له فى الوهيته وربوبيته ، ادركوا ما دعوا اليه تماما ، وتبين لهم من غير ما لبس ولا ابهام اى شىء هو الذى قد نفاه القائل ومنع غير الله أن يوصف به ، وأى شىء قـد خصـه واخلصه لله تعالى ، فالذين كفروا انما كفروا عن بينة ومعرفة بكل ما يبطله وينعى عليه كفره بألوهية غير الله وربوبيته ، وكذلك من آمن فقد آمن عن بينة وبصيرة بكل ما يوجب قبول تلك العقيـدة الأخذ به أو الانسلاخ عنه .

« وكذلك كانت كلمتا « العبادة » و « الدين » شائعتين فى لغتهم وكانوا يعلمون ما العبد ، وما الحـال التى يعبر عنهـا بالعبودية ، وما هو المنهاج العمـلى الذى يطلق عليـه اسم « العبـادة » وما مغزى « الدين » وما هى المعانى التى تشـتمل عليه هذه الكلمة ؟ ومن ثم لما قيل لهم : « ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » وادخلوا فى دين الله منقطعين عن الأديان كلهـا ما اخطأوا فى فهم هذه الدعوة التى جاء بهـا القرآن . وما أن قرعت كلماتها اسماعهم حتى تبينوا : أى نوع من التغيير فى نظام

حياتهم جاءت تطالبهم به تلك الدعوة ؟ »(١) .

لكن الحال لم يعد على هذا المنوال ، بل غابت عن الناس وخفيت عليهم هذه الحقائق المشرقة ، وتراكم على المصطلحات الأربعة فى القرآن — التى هى فى منزلة المبادىء الأولية لدى الاسلام — غبار كثيف من الجهل والعجمة ، والغفلة والاهمال ، وكان ذلك على اثر انقراض عهد النبوة ، والجيل الذى أدرك العصر الجاهلى ونشأ فى الاسلام ، يقول الاستاذ الفاضل فى السطور الآتية :

« ولكنه فى القرون التى تلت ذلك العصر الزاهر ، جعلت تتبدل المعانى الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات ، تلك المعانى التى كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن ، حتى أخذت تضيق كل كلمة من تلكم الكلمات الأربع عما كانت تتسع له وتحيط به من قبل ، وعادت منحصرة فى معان ضيقة محدودة ومخصوصة بمدلولات غامضة مستبهمة ، وذلك لسببين اثنين :

« الأول : قلة الذوق العربى السليم ونضوب معين العربية الخالصة فى العصور المتأخرة ، والثانى : أن الذين ولدوا فى

---

(١) « المصطلحات الاربعة فى القرآن » ص ٨ — ٩ الطبعة الرابعة طبع « الدار الكويتية » .

المجتمع الاسلامى ونشأوا فيه ، لم يكن قد بقى لهم من معانى كلمات « الاله » و « الرب » و « العبادة » و « الدين » ما كان شائعا فى المجتمع الجاهلى وقت نزول القرآن . ولأجل هذين السببين أصبح اللغويون والمفسرون فى العصور المتأخرة يشرحون أكثر كلمات القرآن فى معاجم اللغة وكتب التفسير بالمعانى التى فهمها المتأخرون من المسلمين بدلا من معانيها اللغوية الأصلية ، ودونك من ذلك أمثلة :

« أن كلمة « الاله » جعلوها كأنها مترادفة مع كلمة الأصنام والأوثان ، وكلمة « الرب » جعلوها مترادفة مع الذى يربى وينشىء ، وللذات القائمة بأمر تربية الخلق وتنشئتهم . وكلمة « العبادة » حدودها فى معانى التأله والتنسك والخضوع والصلاة بين يدى الله . وكلمة « الدين » جعلوها نظيرا لكلمة النحلة (Religion) وكلمة « الطاغوت » فسروها بالصنم أو الشيطان (١) » .

ثم يقول وهو يتحدث عن نتائج هذا التغير فى الفهم والادراك :

« فمن الحق الذى لا مراء فيه انه قد خفى على الناس

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٩ .

معظم تعـــاليم القرآن ، بل وغابت عنهـــم روحه السامية وفكرته المركزية ، لمجرد ما غشي هذه المصطلحات الأربعة الأساسية من حجب الجهل ، وذلك من اكبر الأسباب التى قد تطرق لأجلهـــا الوهن والضعف الى عقـــائدهم وأعمـــالهم على رغم قبولهم دين الاسلام وكونهم فى عداد المسلمين» (١) .

صـــلاحية الأمـــة للأخـــذ والتلقى والفهم ،

ومزية القرآن فى الابانة والوضوح والافادة .

ولا يبعد أن يفهم منه القارىء الذى لم يتعمق فى العـــلم ، ولم يقو ايمانه بحفظ هذا الكتاب الخالد ــ بجميع معانى الكلمة ــ وصيانة هذه الأمة عن الضلال العام ، والجهالة المطبقة المخيمـــة على الأمة عبر المسافات الزمانية والمكانية ، أن القرآن قـــد بقى هذه المدة الطويلة ملتبسا على الأمة أو ــ فى تعبير متحفظ ــ على أكثر افرادها ، ومضت على ذلك قرون وأجيال ولم تتبين الأمة حقيقة الكلمات التى يدور عليها هذا الكتاب ، وتقوم عليها تعاليمه ودعوته ، الا فى العصر الأخير حين قيض الله لفهمها ورفع اللثام عنها بعض الكتاب الاسلاميين .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٩ ــ ١٠ .

وهــذا الفهم وان بدا أمرا غير ذى خطــر ، ولكنه عميق الجذور بعيد العواقب فى التفكير الاســلامى ، لأنه يشــكك فى صلاحية هذه الأمة ومركزها القيادى والدعوى ، وفى فهم هــذه الأمة لهذا الكتاب والعمــل به فى تاريخها الطويــل ، ويقلل من قيمة مآثر المجددين والمصلحين والمجتهدين العلمية والعملية ، فان الكتاب الذى لم يفهم حق الفهم فى أطول مدة وأخصبها عملا وعلما وكفاحا ، يشك فى ابانته ووضــوحه وافادته ، ويشــك فى كل ما يقال عنه ويفسر به فى هذا العصر وبعده ، وذلك يفتح البــاب للتوسع فى تأويله على مصراعيه ــ كما فعلت الباطنية فى مختلف أشكالها ــ ويشجع المحاولات التى ترمى الى تحويل الحـقائق الدينية الى لغز مستعص على الفهم والادراك .

الصلة بين الكلمات والمعــانى :

وقــد يعجز كثير من القراء الكرام الذين لا يتمتعون بنظرة عميقة فى التاريخ ، تاريخ المذاهب والفرق ، عن اساغة هــذا الاجمال ، فنرى من المنــاسب أن نثبت هنا ما قلنــاه عن هــذه «الاستراتيجية» الدقيقة التى استخدمتها الباطنية ، فى الجزء الأول من كتابنا « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام » :

« انهم لاحظوا أن أصول الديانة الاســلامية وعقــائدها

واحكامها ومسائلها ، انما عرضت فى أطر الفاظ وكلمات تدل عليها وتعبر عنها وكان لابد من ذلك عند كل رسالة جديدة ، والله يقول : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » (١) وقد تعينت معانى هذه الكلمات ومفاهيمها ، وتواتر ذلك عمليا ولفظيا فى الأمة وعرفته الأمة الاسلامية ودانت به ، فكل من كلمات « النبوءة » و « الرسالة » و « الملائكة » و « المعاد » و « الجنة » و « النار » و « الشريعة » و « الفرض » و « الواجب » و « الحلال » و « الحرام » و « الصلاة » و « الزكاة » و « الصوم » و « الحج » يؤدى معنى خاصا ، وتفهم منها مفاهيم خاصة لايشك فيها مسلم ، ولا يختلف فيها اثنان ، وكما أن هذه الحقائق الدينية — التى تعبر عنها هذه الكلمات — ظلت محفوظة فى الأمة تتوارثها الأجيال ، وتنتقل مع الزمان ، كذلك هذه الكلمات ثروة محفوظة لم تعبث بها يد التحريف ، وقد اصبح كلّ منها لازما وملزوما لصاحبه ، فاذا أطلقت كلمة « الصلاة » — مثلا — انتقل الذهن الى هيئة عبادة خاصة ، فيها قيام وركوع وسجود وقراءة وتسليم ، الى غير ذلك مما يدخل فى اركان « الصلاة » وأجزائها وأوضاعها ، وكذلك اذا أطلقت كلمة «النبوءة»

(١) سورة ابراهيم : ٤

أو « المعاد » تعين منهما ذلك المفهوم الاسلامى الذى يفهمه المسلمون ويدينون به .

لقد أدرك « الباطنية » بذكائهم ، ان هذه الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها ، أساس تقوم عليه الحياة الاسلامية ، والهيكل الفكرى والعملى فى حياة المسلمين ، ولهذه الصلة تدين الوحدة الدينية والفكرية التى يمتاز بها المسلمون ، وعن طريق هذه الصلة يتصل المسلمون بماضيهم وبمنابعهم الصافية ، فاذا انقطعت هذه الصلة — بين الكلمات والمعانى — واصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ومفهوم معين ، أو تسرب الشك والاختلاف اليها ، اصبحت هذه الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة ، وساغ لكل أحد أن يقول ما يشاء ، ويروج على كثير من العامة واشباه العامة بل الخاصة ، وعمت الفوضى العقلية والدينية ، وذلك ما يريدون ، ومنه يدخلون »(١) .

المزايا الأساسية للقرآن :

ثم ان هذه الفكرة تخالف الحقيقة العلمية ، والعقيدة الدينية ، وهى أن هذه الأمة لم تتلق الدين فى صورة الكتاب فحسب ،

---

(١) رجال الفكر والدعوة فى الاسلام الجزء الأول ، ص ١٦٦ — ١٦٧ — ١٦٨ الطبعة الثانية . طبع « دار القلم » الكويت .

بل ظلت تنتقل الكلمات والمعانى والمفاهيم من جيـل الى جيل ، وظلت تتوارثها الأجيال ، حتى التطبيق العملى أيضا .. فضلا عن أنه ينافى وصف الله تعالى لهذا الكتاب بالابانة والوضوح فى غير ما موضع من القرآن :

جاء فى مستهل سورة يوسف :

« الر ، تلك آيات الكتاب المبين ، انا أنزلناه قرآنا عربيـا لعلكم تعقلون »(١) .

وفى مطلع سورة الحجر :

« الر ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين »(٢) .

وفى مفتتح سورة النمل :

« طس ، تلك آيات القرآن وكتاب مبين »(٣) .

وفى الآية الأولى من سورة الشعراء :

« طسم ، تلك آيات الكتاب المبين »(٤) .

وتتحدث سورة الشعراء عن صلاحية الابانة والتفهيم التى يفيض بها الوحى — الذى نزل به الروح الأمين : جبرئيل ، على قلب النبى صلى الله عليه وسلم — فتقول :

« وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الـروح الأمين عـلى

---

(١) سورة يوسف : ١ — ٢ (٢) سورة الحجر : ١
(٣) سورة النمل : ١ (٤) سورة الشعراء : ١ — ٢

قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين »(١) .

وتبتدىء سورة حم بالكلمات الآتية :

« حم والكتاب المبين »(٢) .

وهل يسوغ لعاقل ان يعتقد أن ذلك الكتاب — الذى نص القرآن مرارا وتكرارا وفى قوة وشدة والحاح ، على ابانته ووضوحه وكونه سهلا سائغا للفهم — عجز عن تفهيم مصطلحاته الأربعة — التى يدور حولها نظامه الاعتقادى والعملى والدعوى — وتقريب معانيها الحقيقية ومفاهيمها الأصلية الى العقول والأذهان ؟(٣) !

وقد نص القرآن فى غير موضع منه على أن آياته محكمة ومفصلة :

« هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب »(٤) .

« واذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ، رايت

---

(١) سورة الشعراء : ١٩٢ (٢) سورة حم : ١ — ٢

(٣) يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودى نفسه فى تفسير كلمة « المبين » : «انها تعنى أن هذه آيات القرآن الذى يفصح عن مفاهيمه ومدلولاته فى صراحة ووضوح » الجزء الثانى من تفهيم القرآن (أردو) راجع تفسير سورة الحجر .

(٤) سورة آل عمران : ٧

الذين فى قلوبهم مــرض ينظــرون اليك نظــر المغشى عليه من الموت »(١) .

« الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصــلت من لــدن حــكيم خبير »(٢) .

يقول المفسر الشهير الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسمعيل ابن كثير (م ٧٧٤ هـ) فى تفسير « محكمــات هن أم الكتــاب » : « أى بينات واضحات الدلالة ، لاالتباس فيها على أحد » ويسرد فى هذا المعنى قول محمد بن اسحاق بن يسار : « فهن حجة الرب وعصمة العباد ، ودفع الخصوم الباطل ، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعنا عليه »(٣) .

ويقول العلامة شهاب الدين السيد محمود بن عبــد الله الآلوسى (م١٢٧٠هـ) فى تفسيره المعروف « روح المعانى » لدى الحديث عن « محكمات » : « صفة آيات : أى واضحة المعنى ، ظاهرة الــدلالة ، محكمة العبــارة ، محفــوظة من الاحتمــال والاشتباه »(٤) .

---

(١) سورة محمد : ٢٠   (٢) سورة هود

(٣) أنظر تفسير ابن كثير ــ سورة آل عمران .

(٤) « روح المعانى » الجزء الأول ، سورة آل عمران

أما كون الآيات القرآنية مفصلة ، فقد جاء النص على ذلك في ١٥ موضعا من القرآن الكريم ، في مختلف الصيغ وأنواع الأساليب(١) ».

ان هذه الصفات والنعوت هي الأخرى تنافي الفكرة القائلة بأن العديد من الحقائق القرآنية ظلت خافية على الناس الى مدة طويلة .

ثم ان هذا الأسلوب من التفكير يناقض قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »(٢) والوعد بالحفظ في موضع الامتنان وتذكير الفضل والاحسان ، يستوجب الفهم والشرح والعمل والتطبيق ، فلا خير في كتاب يبقى ولا يفهم ولا يعمل به وقد قال لرسوله :

« ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه(٣) » .

يقول حكيم الاسلام أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي

---

(١) اقرأ الآيات : ٥٨ ، ٩٧ ، ٩٨و١٢٦ من الأنعام . و ٣٢ ، ٥٢ ، ١٧٤ من الأعراف . . و ١١ من التوبة . . . و ٥ من يونس . . ٢٤ و ٢٨ من الروم . . و ٢ من الرعد . . و ١ من هود . . و ٣ ، ٤٤ من فصلت

(٢) سورة الحجر : ٢١

(٣) سورة القيامة : ١٧ — ١٩

(م١١٧٦هـ) فى كتابه القيم « ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء » فى معرض الحديث عن « أن علينا بيانه » :

« يقول الله تبارك وتعالى : ان علينا ابانة القرآن وايضاحه فسنظل نقيض فى كل عصر جماعة كثيرة العدد تقوم بشرح كلماته التى تحتاج الى الايضاح ، وبيان أسباب النزول ، حتى يتحقق الناس مفاهيمها الأصلية ومصاديقها الصحيحة ، الا أن دوره يأتى بعد حفظ القرآن وتبليغه ونشره ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم نفسه هو المفسر للقرآن وشارحه الأول .. وجاء دور تفسير القرآن ــ فى الواقع العملى ــ بعد ما تم تدوينه وجمعه فى المصاحف ، وبعد ما عمت تلاوته وقراءته ، وكان سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنه هو رائد هذا العمل(١) » .

اذا فبعد هذا الوعد الالهى المؤكد الصريح المتمثل فى « ان علينا بيانه » لا مساغ للقول بأن الكلمات القرآنية الجذرية ، التى لا يمكن الوصول الى مفاهيم القرآن ومعانيها الحقيقية واحكامه ومطالبه المرادة ، بدونها ، بقيت قرونا طوالا غير مفهومة ، منطوية على معانيها ، ولا يعنى هذا الاعتقاد الا نقضا للآية الكريمة السالفة الذكر ، فى مفهومها ومعناها ومقتضاها .

---

(١) «ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» فى اللغة الفارسية ، ص ٥١ .

الأمة المسلمة لم تقع فريسة الجهالة المطبقة والضلالة الشاملة فى اى دور من ادوارها :

ان هذا الأسلوب من البحث وهـذا المنهـج من التفكير ، قد يجعلان الانسان يفهم ــ منطقيا ــ أنه قد اتى على هـذه الأمة المسلمة عهد طويل بقيت فيه جاهلة لمصطلحات القرآن الأساسية ومعانيها ومدلولاتها الحقيقية ، التى تتوقف عليهـا صحة تفكيرها وصحة عملها ، الأمر الذى يرمى الأمة بالجهل الصريح والاهمـال الهائل بل وبالضلال المبين ايضا ، على حين ان الكتاب والسـنة ودواوين الأحاديث بمجموعها تدل دلالة مبدئيـة على أن هـذه الأمة ــ بالعكس من الأمم الاخرى السـابقة ــ سـوف لا تمنى بالضلال المطبق الشامل فى أى عهد من عهودها ، قد صرح بذلك كبار الأئمة وجهابذة المحدثين .. وقد جاء فى حديث « لا تجتمـع امتى على ضلالة » يقول المحدث الأندلسى المعروف ــ وأحد كبار نقاد الحديث ــ العلامة ابو محمد على بن حزم (المتوفى ٤٥٦هـ) فى كتابه « الاحكام فى أصول الأحكام » :

« قالوا (المحدثون) فصح انه لا تجتمع امة محمد (ص) على غير الحق ابدا لانه عليه السلام قـد انذر انه لا يزال منهـم

قائم بالحق ابدا ، وقد روى أنه عليه السلام قال : « لا تجتمع أمتى على ضلالة » وهذا وان لم يصح لفظه ولا سنده[1] . فمعناه صحيح بالخبرين المذكورين آنفا »[2] . « اشارة الى الخبرين اللذين ساقهما فيما قبل هذه السطور ، مرويا أحدهما عن ثوبان ، وثانيهما عن معاوية رضى الله عنهما ، وهما : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » و « لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى امر الله وهم ظاهرون على الناس » وفى رواية : « وهم على ذلك ») .

ويقول العلامة الحافظ أبو عبد الله شمس الدين ابن قيم الجوزية (م٨٩١هـ) : « فان الأمة ــ ولله الحمد ــ لم تجتمع على ترك العمل بسنة واحدة ، الا سنة ظاهرة النسخ ، معلوم للأمة ناسخها وحينئذ يتعين العمل بالناسخ دون المنسوخ »[3] .

---

(1) هذا ما يراه العلامة ابن حزم ، أما المحدث الشهير والناقد الكبير العلامة السخاوى ، فيقول : « وبالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة ، (انظر كتابه « المقاصد الحسنة » فصل اللام ألف) .

(2) « الأحكام فى أصول الأحكام » ج ٤ ، ١٣١ ، الطبعة الأولى ، طبع مطبعة السعادة بمصر .

(3) « أعلام الموقعين » ج ٢ ، ص ٣٢٠

ويقول الحافظ ابن كثير — وهو يفسر قوله تعالى :
« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين » الخ :

« فانه قد ضمنت لهم العصمة فى اجتماعهم من الخطأ ، تشريفا لهم وتعظيما لنبيهم ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك »(1) .

ويقول شيخ الاسلام تقى الدين احمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمة الله عليه (م ٧٢٨هـ) خلال البحث فى « الاجماع » :

« وأما اجماع الأمة فهو حق ، لا تجتمع الأمة — والحمد لله — على ضلالة كما وصفها الله بذلك فى الكتاب والسنة ، فقال تعالى : « كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر ، كما وصف نبيهم بذلك فى قوله: « الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » وبذلك وصف المؤمنين فى قوله : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف

---

(1) تفسير ابن كثير . ج ٢ ص ٣٩٣ ، طبع « دار الأندلس»

وينهون عن المنكر » فلو قالت الأمة فى الدين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف فى ذلك ، ولم تنه عن المنكر فيه ، وقال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »(١) .

شهادة العقل السليم :

ولا يمكن للعقل السليم أن يؤمن بأن هذه الأمة ــ التى انجبت عددا هائلا من عباقرة العلماء ونوابغ المدونين للعلوم والفنون وعماليق فى الذكاء والفكر ، لا سيما فى القرون التى تلت عهد الرسالة وعصر نزول القرآن ــ عاشت فى جهل متصل بتلك الحقائق الأساسية التى هى مفتاح فهم القرآن ومحور الدعوة الى الخير . . والأستاذ المودودى نفسه يرفض أن يسلم أن علماء

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ج ١٩ ، ص ١٧٦ ــ ١٧٧ .
واقرأ للتفصيل والاطلاع على الدلائل الشرعية والعقلية فيما يتصل بصيانة الدين ، البحث القيم للعلامة الامام أبى اسحاق الشاطبى (المتوفى ٧٩٠ هـ) بعنوان « المسألة الثانية عشرة » فى الجزء الثانى من كتابه العظيم « الموافقات فى أصول الشريعة » الذى استهله بما يلى : « ان هذه الشريعة المباركة معصومة كما ان صاحبها صلى الله عليه وسلم معصوم ، وكما كانت أمته فيما أجمعت عليه معصومة » ج ٢ ص ٥٨ الى ٦١ ، ويجدر بالدراسة ما قاله المؤلف بشأن صيانة الدين من ناحية الواقع العملى والتاريخى .

الأمـــة بأجمعهم قــد أخطأوا فى فهم نص من نصـــوص القرآن أو الحديث ، وما تبينوا الخطأ الى مدة مــديدة ، يقــول الأستاذ الفاضل خلال البحث فى حديث « الأئمة من قريش » :

« هل يجدر بأن يسلم أن علماء الأمــة بأسرهم قد أخطــأوا فى فهم نص من النصوص وأنهــم ظلوا رهــان هـــذا الخطــأ قرونا ؟ »(١) .

على حين ان حديث « الأئمة من قريش » لا يتصل بالعقائد ، ولا بضروريات الـــدين ولا بأولياته وقطعيـــاته ، أما تلـــك المصطلحات القرآنية الأربعة ، فانها قطب تدور حــوله رحى الدين وهي مناط الفكر والعمل فى هذه الأمة ، وشتان بينهما .

وقد احتج الأستاذ فى ضـــوء هـــذا المبدأ ــ الذى يقـــرره العقل السليم والمنطق المستقيم ، ويستوجب الاعتراف والتسليم ــ على القاديانية بكلمة « خاتم النبيين » التى بقيت الأمـــة المســلمة عبر عصورها لا تفهم منهـــا الا معنى واحـــدا ، ليس الا ، وقــد سرد فى هذا الصدد أقوال أئمة الأمة فى كل عهــد من عهودها .

---

(١) تفهيمات (بالأردية) الجزء الثالث . ص ١٧٦ . توزيــع المكتبة المركزية للجماعة الاسلامية . دهلى ــ الهند .

تحليل وتعليق بقلم العالم المصرى والمرشد العام « للاخوان المسلمين » : الأستاذ حسن اسماعيل الهضيبى(١)

يقول المرحوم الأستاذ حسن اسماعيل الهضيبى ـ الذى عين مرشدا عاما للاخوان المسلمين بعد الامام الشهيد حسن البنا ، باتفاق أعضاء الجماعة ، وقد اتفقت كلمتهم على غزارة علمه وصلاحه واخلاصه وفهمه الدينى ، وعزيمته واستقامته ـ معلقا على ما أسلفت من كلمة الأستاذ المودودى فى كتابه « المصطلحات الأربعة فى القرآن » فى كتابه « دعاة لا قضاة » الذى صدر حديثا فى القاهرة :

« ان هذا التقرير لا يتفق مع الواقع ، ذلك أنه أيا كانت المعانى التى كانت شائعة فى الجاهلية لتلكم الكلمات ، فان القرآن الكريم قد جاء محددا ما يقصده من كل منها ، معرفا المفهوم المعنى من كل لفظة من ألفاظها ، مبينا ذلك غاية البيان ، مجليا المعنى المراد بما لا يدع مجالا للبس أو غموض . وهذا البيان القرآنى قد أغنى عن الرجوع الى أصل تلك الكلمات فى اللغة وما كان لها من معان قبل نزوله ، ولا يستريب مسلم أن بيان القرآن الكريم هو الأحكم والأوضح والاشمل والاجل ، بل هو الذى يتعين الاخذ به والتسليم بمقتضاه . وافق ذلك ما كان قبل نزوله

---

(١) توفى رحمه الله سنة ١٣٩٣ هـ

أم لا »(1) .

ثم يضيف قائلا ــ بعد ما استشهد بالآيات التى استخدمته فيها هاتى الكلمات :

« أيصح ــ فى الواقع ــ أنه لما كان العرب قبائل شتى متفرقة ومختلفة ، ولكل منها لهجتها ، لا تجمعها رئاسة أو ثقافة أو معتقدات موحدة ، وكانوا أمة أمية ، ندر فيهم من ألم بالقراءة وبالكتابة ، يكسوهم الجهل والانحطاط ، ليس لهم كتاب أو احاطة بعلم أو فن . . لما كانوا كذلك كان مفهوم كلمات « الاله » و « الرب » و « العبادة » و « الدين » شائعا بينهم ، معروفا لدى كل امرىء منهم على حد سواء وعلى صفة معينة محددة . . فلما نزل كتاب الله بالذكر المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مشتملا على البيان الجلى والايضاح الشامل ، يتعبد الناس بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار ، ويجهرون به فى صلوات تقام جماعة فى المساجد وغيرها ، ضاعت تلك المعانى واندثرت ، ولم تعد شائعة بين الناس بمثل ما كانت شائعة بينهم فى الجاهلية . أيصح ذلك وكتاب الله محفوظ بين المسلمين ولو قرأ أيهم الفاتحة أو قل هو الله أحد ، أو المعوذتين ، أو سمعها ، لاطلع وعرف وأبصر ما لم يكن يعرف الجاهلى

---

(1) « دعاة لا قضاة » ص ١٩ ــ ٢٠

عنه شيئا »(١) .

« اما واذ جاء القول : (ان الذين ولدوا فى المجتمع الاسلامى ونشأوا فيه لم يكن قد بقى لهم من معانى كلمات « الاله » و « الرب » و « العبادة » و « الدين » ما كان شائعا فى المجتمع الجاهل قبل نزول القرآن » بغير برهان يتوم حجة على صدقه وصحته — فانه يكون مجرد قول لا حجة ، ولا يجوز اتباعه ولا يصح ان تبنى عليه احكام ، وما سبق أن اجتزأناه من كتاب الله من آيات ، شامل على معانى الألوهية والربوبية ، والمفسرون ما اقتصروا قط على تفسير كلمة « الرب » بمعنى دون سائر المعانى التى تشملها ، وانما هم فسروا الكلمة فى كل موضع على المعنى الذى يدل عليه السياق »(٢) .

واعقب المؤلف بكثير من الآيات القرآنية تجلى لكلمة

(١) نفس المصدر ، ص : ٢٥ .
(٢) نفس المصدر ، ص : ٢٥ .

والنظرة على كتب التفسير والمعاجم ودواوين اللغة التى وضعت فى أدوار مختلفة ، وعلى مؤلفات رجال العلم والبحث . ومواعظ رجال الاصلاح والدعوة والعلماء الربانيين وكلماتهم وما دار فى مجلسهم من حديث وحوار — تلك التى قيدت الى حد كبير فى كلماتها الأصيلة — تدل دلالة واضحة على أن تلك الكلمات قد فهمت على حقيقتها وعرضت على صحة معانيها عبر العهود ، الا أن القوم لم يقتصروا على معنى واحد ولم يحددوها فى اطاره كما فعل بعض المتأخرين .

« الرب » معانيها القرآنية المختلفة كما سرد عددا كبيرا من الآيات يلقى الضوء القوى على كلمتى « العبادة » و « الدين » ثم يقول بعد ما سرد قول الأستاذ المودودى الذى جاء فيه :

« لما نزل القرآن فى العرب وعرض على الناطقين بالضاد : كان حينئذ يعرف كل امرىء منهم ما معنى « الاله » وما المراد بـ « الرب » لأن كلمتى الاله والرب كانتا مستعملتين فى كلامهم منذ ذى قبل ، وكانوا يحيطون علما بجميع المعانى التى تطلقان عليها ، ومن ثم اذا قيل لهم : لااله الا الله ولا رب سواه ولا شريك له فى ألوهيته وربوبيته ، ادركوا مادعوا اليه تماما ، وتبين لهم من غير ما لبس ولا ابهام أى شىء هو الذى قد نفاه القائل ، ومنع غير الله أن يوصف به ، وأى شىء قد خصه واخلصه لله تعالى » :

« فنقول - بعون الله - : انه ان كان المقصود بهذا القول القطع بأن كل فرد ممن كان بنجد والحجاز وغيرهما وقت بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام على وجه التحديد والتعيين . قد ادرك بغير ما لبس ولا ابهام ما دعى اليه ، وكان على علم كامل شامل بمعنى كلمتى « الاله » و « الرب » وحقيقة التوحيد ، وبالجملة : المفهوم الكامل الشامل بشهادة « لااله الا الله » ان كان هذا هو المقصود فانه يكون قولا فى حاجة لاقامة البرهان على

صحته ولا يكفى للتدليل على صحة هذه الدعوى الادعاء بشيوع معانى كلمتى « الاله » و « الرب » بين العرب الناطقين بالضاد .

أولا : لأن الشيوع مهما بلغ واشتد ، معناه معرفة الكثرة الغالبة بالأمر ، ولا يرقى الى حد القطع والتيقن من حقيقة علم كل فرد على وجه التحديد والتعيين ، فمن ذا الذى أحصاهم عددا ، وتأكد من حقيقة أمر كل منهم فردا فردا ، ليجزم باستحالة أن يكون بينهم من أخطأ الفهم أو لم يصله العلم .. ؟

ثانيا : ان الذين كانوا بنجد والحجاز وغيرهما . لم يكونوا كلهم من العرب الخلص العالمين باللغة العربية كأهلها ، بل كان فيهم بيقين كثير من المستعربين والأرقاء المستجلبين من نواح شتى وأجناس مختلفة ، وكان فيهم أيضا الأحرار الأجانب الاعجميو اللسان ، فلا يصدق فى حقهم القول بالفهم كفهم الناطق بالضاد ، ولقد حفظ لنا التاريخ أسماء كثيرين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من فارسيين وروميين وأحباش ، وأشار القرآن الكريم الى وجود هؤلاء الأجانب : « لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين »(١) .

التصوير القاتم للعالم الاسلامى والتاريخ الاسلامى :

وحينما يقول الأستاذ المودودى فى صراحة ودون تحفظ :

---

(١) نفس المصدر ، ص : ٣٠ .

« ولكنه فى القرون التى تلت ذلك العصر الزاهر جعلت تتبدل المعانى الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات ، تلك المعانى التى كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن » و « أنه قد خفى على الناس معظم تعاليم القرآن ، بل قد غابت عنهم روحه السامية وفكرته المركزية لمجرد ما غشى هذه المصطلحات الأربعة الأساسية من حجب الجهل » .

فطبعا يبدو له تاريخ هذه الأمة الماضى كله سلسلة متصلة الحلقات من الجهل والانحطاط ، وتبدو له القرون الوسطى الاسلامية – وقد اعترف بمآثر عدد من المجددين « الجانبيين » ظهروا خلال هذه الفترة – عقيمة مجدبة ، نعم .. قد تلمح – فى هذا الظلام المخيم على العالم الاسلامى – بارقة محاولات الاصلاح والتجديد فى ناحية من نواحى العالم الاسلامى « كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا » .

ان هذا الأسلوب من التفكير يجعله – منطقيا وطبيعيا – يصور العالم الاسلامى فيما بعد عهد الصحابة والتابعين(١) تصويرا يشكك الشباب المسلم المثقف ، الذكى الرقيق الشعور – الذى لم تتسن له فرصة لدراسة تاريخ الاسلام العلمى والفكرى

---

(١) على أن بعض كتاباته تشف عن أن عهد الصحابة والتابعين أيضا لم يكن مثاليا بالتمام

والاصلاحى والتجديدى دراسة عميقة واسعة ــ فى خلود الرسالة الاسلامية ، وأبدية تعاليم الاسلام ، وصلاحية الاسلام الانتاجية ، وقدرته على صنع « الرجال » وتربية العباقرة والأبطال ، وان شجرة الاسلام لا تعرف الذوى والذبول ، وانها دائمة الحياة والشباب ، والاخضرار والاثمار ، تؤتى اكلها كل حين باذن ربها ، وان خلية الاسلام تعسل فى كل حين وآن ، وفى كل زمان ومكان . . فتتزعزع ثقته بمصير الاسلام ويقع ــ الى حد ما ــ فريسة « مركب النقص » واليأس ، ويخيل اليه ان تربة الاسلام لا تصلح للانبات مهما هطلت عليها الأمطار ، وصب « الفلاحون » عليها جهدهم وسقوها بعرق جبينهم آناء الليل والنهار .

قد يشعر القارىء بشىء من القسوة فى هذا الحكم ، ويقول لقد بنى كل المصلحين والمسلمين فى الاسلام عملهم الاصلاحى على نقد المجتمع الاسلامى وعدم ارتياحهم الى الوضع السائد ، كذلك الغزالى فى كتابه « الاحياء » وابن تيمية فى كتابه « الرد على البكرى » و « الرد على الاخنائى » والشيخ عبد القادر الجيلى فى خطبه ومواعظه المجلجلة ، والشيخ عبد الرحيم الدهلوى، وحفيده الشيخ اسماعيل الشهيد فى كتاباتهما ، ولكن لا يعزبن عن البال أن نقدهم كان موجها الى عصرهم وبيئتهم فحسب ،

لم يكن شاملا للتاريخ الاسلامى ، ولا للامة الاسلامية فى جميع أدوارها وامصارها وشتان ما بين الأسلوبين .

وكل من صدر من قلمه ما يشعر بجدب التاريخ الاسلامى ، وعقم الأمة المحمدية ، وشيوع الظلام ، وانتشار الانحراف والضلال فى عالم الاسلام ، يحمل كلامه على التسرع فى الحكم ، ونقص الاطلاع على تاريخ الاصلاح والتجديد ، ولا يستثنى المؤلف نفسه عن التورط فى هذا الخطأ فى كتاباته المبكرة التى صدرت عنه قبل النضج الفكرى ، والدراسة الاختصاصية الواسعة(١) ؛ وقد تفطن لهذا فى كتابه الشهير « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » وقد جاء تحت عنوان « انكار الدين على المسلمين واهابته بهم » :

« ولا يعزبن عن البال أن الدين لم يزلْ طول هذه المدة حيا محفوظا من التحريف والتبديل ؛ مهيبا للمسلمين ، ناعيا عليهم انحرافهم عن طريقه ، ولم يزل مناره عاليا ، وضوؤه مشرقا « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » ولم يزل

---

(١) كما جاء فى كتابه الشهير الواسع الانتشار فى شبه القارة الهندية « سيرة سيد احمد شهيد » بعنوان عصر السيد الامام (٥٥ — ٥٨) وليعلم أن هذا الكتاب هو باكورة مؤلفاته ، قد بدأ بتأليفه وكتب هذا الفصل ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره .

الكتاب والسنة يبعثان فى نفوس القراء ثورة على الشرك والبدع ، وعلى الجهالة والضلالة ، وثورة على أخلاق الجاهلية وعوائدها ، وثورة على ترف المترفين واستبداد الملوك ، ولم يزل ينهض بتأثيرهما فى كل دور من أدوار التاريخ الاسلامى ، وفى كل ناحية من نواحى العالم الاسلامى ، رجال يقومون فى هذه الأمة على طريقة الأنبياء ، يجددون لها أمر دينها الخ(١) .

وقال تحت عنوان ((نتاج القرون المنحطة)) :

((وظلت خلية الاسلام تعسل فى أدوار الانحطاط ايضا ، ويظهر من الملوك والفاتحين افراد هم أنموذج الصحابة والسلف الصالح فى سيرتهم وأخلاقهم ، فى دينهم وتقواهم ، وينهض فى العالم الاسلامى رجال يتجمل التاريخ بذكرهم .

وكان المسلمون رغم انحرافهم عن سيرتهم الأولى وطريقهم المثالى أقرب الى طريق الأنبياء ، وأطوع لله من الأمم الجاهلية المعاصرة لهم .

وكان وجودهم ودولتهم أكبر عائق للجاهلية فى انتشارها وازدهارها ، وكانوا رغم نقائصهم أكبر قوة فى العالم تهابها

(١)ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الطبعة العاشرة ، دار الانصار ، ص ١٥١ ، ١٥٢

الدول وتحسب لها كل حساب »(١) .

ولازالة هذا الانطباع المستعجل الف كتابه الكبير «رجال الفكر والدعوة فى الاسلام »(٢) الذى استعرض فيه الجهود الاصلاحية التجديدية فى تاريخ الاسلام الدينى والفكرى والاجتماعى ، وذكر كبار قادتها وزعمائها ، من مختلف الطبقات الاسلامية ، والعصور التاريخية ، واثبت فى مقدمته أن حركة الاصلاح والتجديد تكاد تكون متصلة الحلقات لا تتخللها فترة طويلة .

وعندما يتحدث الأستاذ فى مثل هذا الموضوع ، يأخذه الحماس فيرخي العنان لقلمه ، فيصول ويجول ، ويأخذ اسلوبه الكتابى طابعا آخر ، عاطفيا خطابيا ، غير الطابع العلمى الهادىء المعهود المتبع لديه ، ولندعه يؤكد صدق ما نقول :

« ان روح التحقيق والاجتهاد - وحرية الفكر والرأى ، وحرية نشدان الحق ، التى خلقها النبى صلى الله عليه وسلم فى أتباعه ، ظلت تعمل عملها بكل قوة زهاء ثلاثة قرون ، ثم بدأ استبداد الأمراء والحكام ، والعلماء والمشايخ يصيب منها ، ثم انتزع من العقول المفكرة حقها فى التفكير ، ومن العيون المبصرة

---

(١) ايضا ص ١٥٧

(٢) الكتاب فى ثلاثة اجزاء فى « أردو » ظهر لها جزءان بالعربية تتبعها أجزاء أخرى .

حقها فى البصارة ، ومن الالسن الناطقة حقها فى النطق ، وصار المسلمون يدربون فعلا على الرق والعبودية فى كل مكان : فى مجالس الأمراء ، وفى المدارس وفى الزوايا ، وسيطرت عليهم عبودية العقل والقلب ، وعبودية الجسم والروح ، وأنشأ فيهم رجال الحكم نفسية العبودية بحملهم على الركوع والسجود لهم وجرعهم رجال المدارس كأسا مسمومة من تقديس «الأكابر» و « العظماء » مع تقديس الله ، ومسخ رجال الزوايا طريقة السنة للبيعة ووضعوا فى أعناقهم غلا من العبودية « المقدسة » لم يخترع الانسان لانسان آخر من ذى قبل غلا اشد واثقل منه .. واذا بدأ الناس يتطامنون برؤوسهم الى الأرض لغير الله ، واذا جعلوا يضعون احدى يديهم فوق الأخرى أمام غير الله كالصلاة ، واذا أصبح النظر الى الانسان يعتبر اساءة أدب ، واذا بدأت أيدى البشر وأرجلة تقبل ، واذا أصبح الانسان الها للانسان ومالكه ورازقه ، واذا عاد الانسان مستبدا « بالأمر » و « النهى » ، واعتبر غنيا عن الاستناد الى الكتاب والسنة ، واعتبر معصوما من الخطايا وبريئا من العيب والنقيصة ، واذا أضحى الأمر والرأى البشرى يعد واجب الامتثال والاطاعة كأمر الله تماما — فى الواقع العملى وان لم يكن فى الواقع الاعتقادى — فتأكد أن ذلك يعنى التولى عن الدعوة المتمثلة فى « الا نعبد الا الله ولا نشرك

به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله » ولا يعود بعد ذلك امل فى تقدم علمى واخلاقى وروحانى ، بل يؤدى ذلك حتميا الى الزوال والانحطاط »(١) .

وكذلك يقول فى صريح العبارة فى كتابه « التجديد واحياء الدين » — وهو يستعرض محاولات الاصلاح والتجديد فى تاريخ الاسلام ومآثر أولئك الأعلام الذين حملوا لواءهما والخدمات المخلصة والجهود المشكورة التى قاموا بها فى هذا السبيل — :

« نظرة عجلى على التاريخ تدل على أنه لم يظهر مجدد — فى معنى الكلمة — بعد ، وكاد عمر بن عبد العزيز أن يعتلى هذا المنصب ، ولكنه لم يتمكن منه ، وكل من ظهر من بعده من رجال التجديد ، اقتصروا على العمل فى ناحية أو نواح خاصة ، ولا يزال منصب المجدد الكامل شاغرا »(٢) .

تبشير الأحاديث الصحيحة باستمرار ظهور القائمين بالحق وبتواصل الجهود الرامية الى اعلاء الحق ورفع مناره عاليا :

ان هذا الأسلوب من التفكير ، وهذه النتيجة النابعة من

---

(١) « تفهيمات » ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨ (فى الأردية) توزيع المكتبة المركزية للجماعة الاسلامية بالهند .

(٢) « التجديد واحياء الدين » (باللغة الأردية) ص ٣١ ، توزيع مكتبة الجماعة الاسلامية ، دار الاسلام « بتان كوت » بنجاب .

دراسة التاريخ يتعارضان مع مفهـــوم تلك الأحاديث الصـــحيحة الصريحة التى تنبىء بأن الفرصة التى أكرمت بها هذه الأمة للعمل فى هذه الدنيا ، سوف لا تخلو لمحة من لمحاتها كليا من القـــائمين بالحق ، والمجاهدين فى سبيله :

جاء فى صحيحى البخارى ومسلم :

« لا يزال ناس من أمتى ظاهـــرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون »(١) .

وجاء فى جامع الترمذى :

« لا تزال طائفة من أمتى منصورين لا يضرهم من خذلهـــم حتى تقوم الساعة »(٢) .

وقد جاء فى رواية ابن ماجة أوضح وأصرح :

« لا تزال طائفـــة من أمتى قوامـــة على أمر الله ، لايضرها من خالفها »(٣) .

وجاء فى رواية أخرى فى جامع الترمذى :

« مثل أمتى مثـــل المطـــر لا يدرى آخره خير أم أوله »(٤)

وفى رواية مستدرك الحاكم :

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب المناقب
(٢) جامع الترمذى ، كتاب الفتن ، باب ما جاء فى الشام .
(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن .
(٤) جامع الترمذى .

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة »(١) .

اتصال محاولات الاصلاح والتجديد فى التاريخ الاسلامى :

ثم ان دراسة التاريخ الأمينة الواسعة العميقة — التى لم تقتصر على كتب التاريخ « التقليدى » الاصطلاحى ، وعلى المؤلفات والمطبوعات المتداولة — تنفى هذه الفكرة وترفضها ، وتؤكد ان محاولات الاصلاح والتجديد ، ومحاربة الجاهلية والظلام ، ومقاومة الحركات الهدامة والتيار المنحرف والفتن العمياء ، والوقوف فى وجه الهجمات الخارجية والداخلية على الاسلام ، وتحدى القوى المتآمرة ضد الاسلام ، ومجابهة الغواية العقيدية والفكرية والشذوذ العلمى والأخلاقى ، وعملية ازاحة اللثام عن وجه الاسلام الحقيقى ونفض الغبار عن لجينه الصافى ، وعرض تعاليم الاسلام فى ثوب قشيب ولباس جديد كاملة غير منقوصة خالصة غير مخدوشة .. متصلة ومستمرة فى تاريخ الاسلام دون انقطاع او تخلل فترة قصيرة . فاذا نهض هناك دارس لتاريخ الاسلام والمسلمين ، صبور على المطالعة ، واسع الأفق ، دقيق الملاحظة ، بعيد الهمة ، تخصص لهذا الموضوع ، وادعى — ولديه الشعور الكافى بالمسئولية — بأن حلقات هذه السلسلة

---

(١) مستدرك الحاكم .

الذهبية كلها متصلة بعضها ببعض ، ولم تنقطع عنها حلقة ؛ فلن يجوز أن نرميه بالتطرف فى احسان الظن ، وبمحاولة تخدير الأمة فكريا ، لأن الذنب ليس على التاريخ ، وانما الذنب على منهاج التأليف وكتابة التاريخ(١) ، ولأن عدم وجود الوثائق التاريخية منسقة فى موضوع ، لا يدل من قريب أو بعيد على عدم وجود الوقائع والمواد والشهادات والدلائل التاريخية أصلا ، وتلك هى تجربة متكررة مطردة فى التاريخ العلمى يمر بها مرة بعد أخرى كل من يعنى بدراسة التاريخ ، أو يتخصص فى هذا الموضوع ، أو ينشغل به ، واذا صرفنا النظر عن التاريخ ومنطقه ولغته وأسلوبه، فان كلمة شيخ الاسلام ابن تيمية الحكيمة « عدم العلم لايستلزم عدم الوجود » تعبر عن حقيقة علمية وتسلط الضوء على الطريق . فان كان هناك عالم لم يتسن له الاطلاع على اتصال محاولات الاصلاح والتجديد ، ولم تدعه أوضاعه وملابساته ومسئولياته الخاصة ، وتكوينه العقلى والنفسى أن يدرس هذا الموضوع دراسة اختصاص ، فان ذلك لا يعنى أن هذه المحاولات لم تتحقق أصلا .

---

(١) وكتاب «رجال الفكر والدعوة فى الاسلام» (الذى صدرت منه ثلاثة أجزاء فى أردو ، وجزآن بالعربية) لكاتب هذه السطور محاولة متواضعة فى هذا الاتجاه وستتضح الحقيقة جلية واضحة عندما تتم هذه السلسلة باذن الله .

الفعل النفسي لأسلوب التفكير السلبي :

والتشكيك في صلاحية الأمة المسلمة للانجاب والانتاج وقدرة شجرة الاسلام الطيبة – التي هي مصداق « تؤتي أكلها كل حين باذن ربها » على الاثمار ، وغض البصر عن كل ما تحقق عبر تاريخ الاسلام والمسلمين الطويل من مآثر وجهود ومحاولات مستمرة في مجال الاصلاح والتجديد وتغيير الأحوال ، واعادة الأمور الى نصابها ، أو التقليل من شأنه ، والنظر الى التاريخ الاسلامي بالمنظار الأسود .. ان هذا الأسلوب (Technique) أو الخطة « الاستراتيجية » قد استخدمها أولئك الذين أبوا الا أن يبنوا بناءهم على أنقاض التاريخ الاسلامي والفكر الاسلامي ، والذين اعتقدوا أن الناس لا يقدرون ما يقومون به من « تحقيق واجتهاد » ولا يتهيأ الجو لحركتهم ودعوتهم ما لم يثيروا الشبهات في الأذهان حول هذا التراث التاريخي الهائل ، وما لم يرسخوا فيها ضآلته وتفاهته وعدم غنائه .. ويمكن أن نضرب في ذلك مثلا بمؤسسي فرق وحركات عديدة ، الا اننا لا نؤمن أبدا بأن ما صدر من قلم الأستاذ المودودي في هذا الموضوع كان استخداما لهذا الأسلوب أو الخطة الاستراتيجية ، لكن مهما كان ذلك عن خلوص نية وحسن طوية ، فان نتيجته السلبية الطبيعية لابد أن تتحقق ، وذلك ما يقتضيه المنطق السليم وطبائع الأشياء وقانون الأسباب والمسببات في الكون .

ومن ثم فان الذين يقتصرون على دراســـة كتابات الأســتاذ المودودى ولم يفهموا الاسلام والدعوة الاسلامية وتعاليم الاسلام والتاريخ الاسلامى ، الا من خلال كتاباته ومقــالاته ومؤلفاته قــد بلغ بهم اليــأس من تاريخ الاســلام وماضى المســلمين ومآثرهم العملية والفكرية فيما بعد القرون الثلاثة الأولى ، حتى تضــاءلت امامهم الشخصيات الاسلامية العملاقة ، وقلت قيمة الجهــود التى بذلت فى سبيل النهوض بالاسلام والمسلمين وادالة هذا الدين من الجاهلية فى الماضى ، وقيمة المآثر العلمية التى تحلى بهــا تاريخ الاسلام الفكرى والعلمى وازدانت بها المكتبة العالمية ، وآمن كثير منهم — وصرح به بعضهم — أن فكرة الاسلام المنسقة أو التصور الاسلامــى الكامل لم يعرض الا فى هذا الزمن الأخير عن طريق دعــوة « الجماعة الاسلاميــة » فى شبــه القارة الهندية وبقلم مؤسسها فى الثلاثينات من القرن العشرين .

الاقتصار على حاكمية « الاله » و « الرب » :

ومحور المصــطلحات القرآنية الأربعة الأساسيــة عند الأستاذ المودودى وفكرتها المركزية الأساسية هى « حاكمية الاله والرب » أما « الدين » و « العبادة » فهما — فيما يراه — طريقان يؤديان اليها ، يقول — وهو يشرح مصطلح « الاله » :

« فخلاصة القول أن أصل الألوهية وجوهرها هو الســلطة

سواء أكان يعتقدها الناس من حيث أن حكمها على هذا العالم حكم مهيمن على قوانين الطبيعة ، أو من حيث ان الانسان فى حياته الدنيا مطيع لأمرها وتابع لارشادها ، وأن أمرها فى حد ذاته واجب الطاعة والاذعان ، وهذا هو تصور السلطة الذى يجعله القرآن الكريم اساسا لما يأتى به من البراهين والحجج على انكار الوهية غير الله واثبات الألوهية لله تعالى وحده »(١) .

ويقول بعد ما يقدم آيات قرآنية كثيرة كدليل على دعواه :

« ففى جميع هذه الآيات من أولها الى آخرها لا تجد الا فكرة رئيسية واحدة ، الا وهى أن كلا من الألوهية والسلطة تستلزم الاخرى ، وانه لا فرق بينهما من حيث المعنى والروح ، فالذى لا سلطة له ، لا يمكن أن يكون الها ، ولا ينبغى ان يتخذ الها ، وأما من يملك السلطة فهو الذى يجوز أن يكون الها ، وهو وحده ينبغى أن يتخذ الها ، ذلك بأن جميع حاجات المرء التى تتعلق بالاله او التى يضطر المرء لأجلها ان يتخذ احدا الها له ، لا يمكن قضاء شيء منها من دون وجود السلطة . ولذلك لا معنى لالوهية من لا سلطة له ، فان ذلك ايضا مخالف للحقيقة ، ومن النفخ فى الرماد ان يرجع اليه المرء ويرجو منه شيئا »(٢) .

---

(١) « المصطلحات الأربعة فى القرآن » ص ٢٣
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨ — ٢٩

ويقول فى سياق الشرح « للرب » و « الربوبية » :

« فبقراءة هـذه الآيات بالترتيب الذى سردناها به ، يتبين للقارىء أن القرآن يجعل « الربوبية » مترادفة مع الحاكمية والملكية (Sovereignty) »(١) .

انه يصرح بأن حقيقة الرب هى السلطة العليا ، والعبادة والعبودية عبارة عن طاعة هذه السلطة وامتثال أمرها والاذعان التام لها ، والنبى هو النائب والممثل عن هذا السلطان الأعلى ، ويجب أن يطيعه الناس بوصفه هذا وحده ، والبشر كرعية مالك الملك ، الذين يجب عليهم أن يخلصوا له العبادة والعبودية والخضوع والاذعان . يقول فى صميم الأسلوب السياسى فى معرض التفسير لوصية سيدنا عيسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ المتمثلة فى هذه الآية « ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » من سورة آل عمران :

« يظهر من هذا أن دعوة عيسى عليه الصلاة والسلام كانت تعتمد على ثلاثة أصول ، مثلها مثل دعوة الأنبياء طرا .

الأول : التسليم بأن الله وحده السلطة العليا التى يختار المرء سبيل « العبدية » أمامها ، ويقوم على طاعتها كل النظام الاجتماعى والأخلاقى .

---

(١) نفس المصدر ، ص : ٩٣

الثانى : طاعة أحكام النبى بوصفه نائبا ممثلا عن هذا السلطان الأعلى .

الثالث : أن القانون الذى يضع حدود وقيود التحريم والتحليل هو قانون الله فحسب ، أما قوانين الآخرين المفروضة فرضا ، فباطلة مردودة .

فليس من فرق اذن — ولو قيد شعرة — بين مهمة ودعوة سيدنا عيسى وسيدنا موسى وسيدنا محمد وغيرهم من الأنبياء عليهم أجمعين السلام ، ويخطىء من يقر لكل واحد منهم بمهمة ودعوة مختلفة باختلاف شخصه ، ويفرق بينهم فى الغرض والنوع .

ان من يأمره مالك الملك بالذهاب الى رعيته لدعوتهم لا يمكن أن يكون الغرض من مجيئه شيئا آخر سوى منعهم من العصيان والتحرر والاستقلال المطلق وكفهم عن الشرك (يعنى أن يشركوا آخرين مع مالك الملك فى السلطة العليا بأى شكل من الأشكال) ودعوتهم الى الاذعان التام والعبودية الخالصة والطاعة والعبادة للمالك الأصلى »(١) .

---

(١) « تفهيم القرآن » الجزء الأول (تعريب أحمد ادريس) ص : ٢١٧ ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م ، توزيع : دار القلم — الكويت .

ويقرر فى معرض الحديث عن السلطة والحاكمية واتحادهما أن اعتقاد أمر كائن من دون الله واجب الاطاعة ، والشرك مع الله ، شىء واحد لا فرق بينما ، يقول :

« والحكم والسلطة لا يقبل شىء منهما التجزئة والتقسيم البتة ، فالذى يعتقد أن أمر كائن ما من دون الله مما يجب اطاعته والاذعان له بغير سلطان من عند الله ، فانه يأتى من الشرك بمثل ما يأتى به الذى يدعو غير الله ويسأله ، وكذلك الذى يدعى أنه مالك الملك والمسيطر القاهر ، والحاكم المطلق بالمعانى السياسية ، فان دعواه هذه كدعوى الألوهية ممن ينادى بالناس « انى وليكم وكفيلكم وحاميكم وناصركم » ويريد بكل ذلك المعانى الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية ، الم تر أنه بينما جاء فى القرآن أن الله تعالى لا شريك له فى الخلق وتقدير الأشياء وتدبير نظام العالم ، جاء معه أن الله له الحكم وله الملك ليس له شريك فى الملك ، مما يدل دلالة واضحة على أن الألوهية تشتمل على معانى الحكم والملك أيضا ، وانه مما يستلزمه توحيد الاله الا يشرك بالله تعالى فى هذه المعانى كذلك »(١) .

---

(١) المصطلحات الأربعة فى القرآن ، ص ٣١ — ٣٢ .

التصريحات المماثلة لدى سيد قطب :

وقد أعجب الكاتب الاسلامى الكبير الأستاذ سيد قطب الشهيد — وهو صديق المؤلف العزيز — اعجابا شديدا بكتاب الأستاذ المودودى « المصطلحات الأبعة فى القرآن » ووافقه كل الموافقة فى الآراء والأفكار التى يتضمنها ، وقد جعل «الحاكمية» أخص خصائص الألوهية ، وكتاباته تقلل من شناعة عبادة الأصنام والأوثان وعبادة غير الله فى الجاهلية ، لأنه يعتبرها صورة ساذجة بدائية للجاهلية الأولى . يقول فى كتابه الشهير « معالم فى الطريق » :

« هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله فى الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية .. وهى الحاكمية .. انها تسند الحاكمية الى البشر ، فتجعل بعضهم لبعض أربابا ، لا فى الصورة البدائية الساذجة التى عرفتها الجاهلية الأولى ، ولكن فى صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم ، والشرائع والقوانين ، والأنظمة والأوضاع ، بمعزل عن منهج الله ، وفيما لم يأذن به الله .. »(١) .

---

(١) « معالم فى الطريق ، ص : ٩ . طبع وتوزيع : دار دمشق

انه يعبر عن الأخذ بالقوانين الموضوعة على يد البشر ، والخضوع لحكم البشر ، وقبول التشريع غير الالهى، بـ «العبادة»، يقول فى نفس الكتاب فيما بعد هذه السطور المذكورة اعلاه :

« فالناس فى كل نظام غير النظام الاسلامى يعبد بعضهم بعضا — فى صورة من الصور — وفى المنهج الاسلامى وحده يتحرر الناس جميعا من عبادة بعضهم لبعض ، بعبادة الله وحده ، والتلقى من الله وحده ، والخضوع لله وحده »(١) .

ويقول وهو يتحدث عن العرب الذين خاطبهم القرآن مباشرة:

« كانوا يعرفون أن الألوهية تعنى الحاكمية العليا . وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وافراد الله — سبحانه — بها ، معناه نزع السلطان الذى يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام ، ورده كله الى الله .. »(٢) .

ويقول فى صراحة أكثر وعبارة أوضح :

« كانوا يعلمون أن « لااله الا الله » ثورة على السلطان الأرضى الذى يغتصب أولى خصائص الألوهية ، وثورة على

(١) نفس المصدر . ص ٩ — ١٠ .
(٢) ص : ٢٨ .

الأوضاع التى تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب ، وخروج على السلطات التى تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله . . »(1) .

ويتناول كلمة « لااله الا الله » بالشرح والايضاح ، فيقول :

« لااله الا الله — كما يدركها العربى العارف بمدلولات لغته — : لا حاكمية الا لله ، ولا شريعة الا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله . »(2) .

ولا يفهم هو من « لااله الا الله » الا رد الحاكمية فى كل الامور الى الله وافراده بهذه الحاكمية . . يقول فى موضع من هذا الكتاب — وهو يوصى أصحاب الدعوة الاسلامية بأن يعرفوا أولئك الذين يدعون أنفسهم مسلمين أو تشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون ، بالاسلام الحقيقى — :

يجب أن يعلموهم ان الاسلام هو — أولا — اقرار عقيدة « لااله الا الله » بمدلولها الحقيقى ، وهو رد الحاكمية لله فى أمرهم كله ، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم »(3) .

---

(1) ص 28

(2) نفس المصدر : 31 .

(3) نفس المصدر ص : 46 .

ويقول فى موضع آخر :

« ان اعلان ربوبية الله وحده للعالمين ، معناها : الثورة الشاملة على حاكمية البشر فى كل صورها وأشكالها وأنظمتها واوضاعها ، والتمرد الكامل على كل وضع فى أرجاء الأرض ، الحكم فيه للبشر فى صورة من الصور .. أو بتعبير آخر مرادف : الألوهية فيه للبشر فى صورة من الصور »(١) .

ومن يجعل « الحاكمية » أخص خصائص « الألوهية » وفكرتها المركزية ، فانه يعتبر — طبيعيا — التحاكم الى قانون من القوانين البشرية ، فى أى شأن من شؤون الحياة ، مخالفة للدين، واشراكا فى الحاكمية — الذى يرادف عند هؤلاء السادة الاشراك فى الألوهية أو الربوبية .

ويقول سيد قطب الشهيد — رحمه الله — فى كتابه « فى ظلال القرآن » بمناسبة الكلام على الآية « ذلك الدين القيم » من سورة يوسف :

« وهذا وحده هو الدين القيم ، فلا دين — اذن — لله ما لم تكن دينونة الناس لله وحده ، وما يكن الحكم لله وحده ، ولا عبادة لله اذا دان الناس لغير الله فى شأن واحد من شؤون

---

(١) المصدر السابق ص: ٨١ .

الحياة ، فتوحيد الألوهية يقتضى توحيد الربوبية ، والربوبية تتمثل فى أن يكون الحكم لله ، أو أن تكون العبادة لله ، فهما مترادفان أو متلازمان ، والعبادة التى يعتبر بها الناس مسلمين أو غير مسلمين ، هى الدينونة والخضوع والاتباع لحكم الله دون سواه » (١) .

ويستنتج من ذلك فى السطور الآتية قائلا :

« فهذا الاعتبار يعد من المعلوم من الدين بالضرورة ، من دان لغير الله ، وحكم فى أى أمر من أمور حياته غير الله فليس من المسلمين ، وليس فى هذا الدين ، ومن إفرد الله سبحانه بالحاكمية ورفض الدينونة لغيره من خلائقه ، فهو من المسلمين وفى هذا الدين » (٢) .

ويقول فى عبارة صريحة لا تقبل تأويلا ولا تدع مجالا للنقاش — وهو يتحدث عن الهدف الأساسى الجذرى الذى استهدفته الدعوة النبوية على مدار التاريخ البشرى : —

« ولم يكن الناس — فيما عدا أفرادا معدودة فى فترات قصيرة — ينكرون مبدأ الألوهية ويجحدون وجود الله البتة ، انما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق ، أو يشركون مع

---

(١) (٢) « فى ظلال القرآن » الجزء ١٢ ، ص ٢٠٠ .

الله آلهة أخرى ... اما فى صورة الاعتقاد والعبادة ، واما فى صورة الحاكمية والاتباع ، وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله » (١) .

تفنيد مغالاة والرد عليها :

يبدو أنه ظهرت فى مصر فئة تأثرت بهذه الكتابات وتطرفت فى التمسك بهذه الفكرة ، والتفسير العصرى للدين ، والعمل بمقتضاه ، بما اضطر المرحوم الأستاذ الهضيبى الى نقدها ، والحد من شدتها ، ووضع الأمور فى نصابها ، ويقول فى كتابه المشار اليه فى الصفحات الماضية ــ بعد ما سرد تفسير الأستاذ المودودى لفكرته « حاكمية الاله » :

وقد توهم البعض أن قائل تلك المقالة يرى استحالة أن يأذن الله تعالى للناس أن يضعوا لأنفسهم بعض التنظيمات أو التشريعات التى تنظم جانبا من شؤون حياتهم (٢) » .

ثم يقول الأستاذ الهضيبى وهو يصرح باستبعاد أن يكون الأستاذ المودودى قد رأى هذا الرأى وفكر هذا التفكير :

« والحق أن الله عز وجل قد ترك لنا كثيرا من أمور

---

(١) « معالم فى الطريق » ص ٢١ .
(٢) « دعاء لا قضاة » ص : ٧٢ .

دنيانا ، ننظمها حسبما تهدينا اليه عقولنا فى اطار مقاصد عامة ، وغايات حددها لنا سبحانه وتعالى وأمرنا بتحقيقها ؛ وبشرط أن لا نحل حراما أو نحرم حلالا ، ذلك أن الأفعال فى الشريعة اما فرض أو حرام أو مباح .

والفرض : الذى فرضه الله علينا واجب لا يملك انسان أن يقرر عدم وجوبه أو يقبل منه ، وفاعل ذلك بعد أن بلغه الحق وقامت عليه الحجة ، جاحد للنص مكذب لربه تعالى ، فهو كافر مشرك بلا جدال .

وما حرمه الله تعالى : حرام الى يوم القيامة لا يملك احد أن يحله وفاعل ذلك بعد بلوغ الحق اليه وقيام الحجة عليه ، جاحد للنص ، مكذب لربه ، فهو كافر مشرك بلا جدال .

أما المباحات : فان للمسلمين أن يسنوا فيها من الأنظمة — التى قد تتخذ شكل قرار أو لائحة أو قانون — ما تقتضيه الحاجة تنفيذا لنصوص وردت بضرورة تحقيق مقاصد عامة ، ومن هذا القبيل قوانين تنظيم الشورى التى أمر الله تعالى بها « وأمرهم شورى بينهم » (١) و « شاورهم فى الأمر » (٢) وأيضا قوانين تنظيم المرور فى الشوارع العامة وقوانين الوقاية الصحية ،

(١) سورة الشورى : ٣٨ .   (٢) سورة آل عمران : ١٥٩

وقوانين مقاومة الآفات الزراعية وتنظيم استعمال مياه الرى ، وقوانين التعـــليم ، وقوانين تنظيم المهن المختلفـــة ، كالطب والهندسة والصيدلة وتحديد الشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يزاولها ، وقوانين تنظيم الادارات والمصالح وتحديد اختصاصاتها وسلطات كل منها ، وتنظيم الجيش وتحديد الشروط التى يجب توافرها فيمن يلحق به وفى ضُباطه ، وصف ضباطه ، وقوانين شروط بناء المساكن بما يحقق سلامتها وتوافر الشروط الصحية فيها ، والقوانين المتعلقة بالشروط اللازم توافرها فى المصـــانع المختلفة ، كل على حسب طبيعة العمل فيهـــا ، وقوانين تنظيم المحال العامة .. الخ .

ولنضرب مثلا بقوانين تنظيم المرور فى الشوارع العامة ، فان الحديث الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذىيقول فيه : « ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم وابشاركم عليكم حرام » والحديث الثابت عنه عليه الصلاة والسلام الذى يقـــول فيـــه : « المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » قد فهمنا منهمـــا وجوب المحافظة على دمائنا وأبشارنا واعراضنا ، والا يسلم أحدنا الآخر لما فيه هلاكه أو الاضرار به ، ووجدنا أننا لو تركنا أمر السير فى الطرقات العامة بالمركبات والسيارات والدراجات وغيرها من وسائل النقل من غير تنظيم وقواعد يلتزم بها الكل ، ونكفل سلامة

الأموال والابدان ، فاننا نكون قد مرضنا دماء الناس وابشارهم وأموالهم للاهدار ، وأسلمناهم بذلك لما فيه هلاكهم والاضرار المحقق بهم ..

ولا يجوز لأحد أن يزعم ان تشريعات تنظيم المرور فى هذه الحالة من تشريع الله تعالى عز وجل ، انما هى من تشريعنا واجتهادنا تنفيذا لمقصد عام أمرنا الله به ، وهى تشريعات وقوانين تتبدل وتتغير حسبما تقتضيه الحاجة بتغير وسائل المواصلات » (١) .

ثم يقول :

« وفى هذا كفاية لابطال قول من زعم أن « التشريع صفة من صفات الله عز وجل ، وأن من وضع تشريعا فقد انتزع لنفسه احدى صفات الله عز وجل ، وجعل نفسه ندا لله تعالى خارجا على سلطانه »(٢) .

ويلوح أن الأمر قد تجاوز حده وتفاقم شره ، وأصبح الناس يعتبرون المسلمين الذين اتبعوا أى قانون بشرى من أى نوع كان ، مارقين من الدين ، وأصبح هناك أناس ينادون بأن المسلمين المعاصرين يعيشون فى جاهلية وكفر ، وأن عقائدهم باطلة لاتمت

---

(١) دعاة لا قضاة : ٧٣ — ٧٤ .
(٢) ص : ٧٤ من نفس المصدر .

الى العقيدة الاسلامية بصلة ما ، لأنهم جـاهلون لمعظم القوانين الالهية التى تنظم حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعيـة ؛ وان أكثريتهم أصبحت تعتقد أن أحكام الشريعة الالهية محصورة فى نطاق العبادات ... يقول الأستاذ الهضيبى مفندا لهذا الرأى الخاطىء :

« اعتقاد عامة الناس أن لأولى الأمر حق اصدار القوانين ووضع التنظيمات التى تنظم جوانب من حياتهم السـياسـية والاقتصادية والاجتماعية ، بناء على نصـوص من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، اعتقاد ليس فيه أيضا شبهة الكفر والشرك بل هو اعتقاد فى أصله حق »(١) .

هل الصلة بين العبد والرب هى صلة الحاكم والمحكوم فحسب ؟ :

ونقف هنا وقفة قصيرة ونستعرض ما تدل عليه دراسـة كتاب الاستاذ المودودى « المصطلحـات الأربعـة فى القرآن » والشىء الكثير من كتاباته ، من أن الصلة بين الله والانسـان ، والعبد والرب ، هى فى الواقع صلة الحاكم والمحكوم ، وصـلة الرعية والملك ، وأن صفة «السلطة العليا» و «الحاكمية المطلقة» هى الأصل من بين أسماء الله الحسنى وصفاته السامية الكثيرة :

---

(١) نفس المصدر ، ص : ٧٩ .

وكأن الدعوة الى الايمان بحاكمية الاله والاذعان لسلطته العليا وصوغ الحياة فى قالب متطلباتها ، كان هدف النبوة الأساسى ، ومقصد بعثة الأنبياء وأساس دعوتهم ، وغاية نزول الكتب والصحف السماوية كلها .

ومهما كان ذلك نتيجة لازمة للايمان بالله والدخول فى حظيرة الاسلام ، ومهما كانت طبيعة الاسلام تقتضيه اقتضاءا طبيعيا ، فانه جزء صغير بالنسبة الى صفات الله وذاته ، وصلته بعباده وصلة عباده بنفسه ، وليس هو كل شىء كما يظنه هؤلاء السادة . والواقع أن صلة الخالق والمخلوق والعبد والمعبود هى اشمل وأوسع ، وأعمق وأدق ، بكثير وكثير من صلة الحاكم والمحكوم ، والآمر والمأمور ، والسلطان والرعية ، وقد لهج القرآن الكريم بذكر أسماء الله وصفاته فى بسط وتفصيل وأسلوب شيق جميل ، لا يدلان ابدا على أن المطلوب من العبد هو الايمان بمجرد حاكميته المطلقة والاذعان لسلطته العليا ، وأن لا يشرك آخرين معه فى سلطته ، اقرأ على سبيل المثال الآيات التالية من أواخر سورة الحشر :

« هو الله الذى لا اله الا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا اله الا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ،

هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » (١) .

مقتضى الأسماء والصفات والأفعال الالهية :

ان هذه الأسماء والصفات والأفعال الالهية — التى زخر القرآن الكريم بذكرها — تتطلب فى صراحة ، أن يحب العبد الهه وربه بقلبه وقالبه ، وأن يتفانى فى طلب رضاه ، وأن يتغنى بمجده ويسبح بحمده ، وأن يلهج بذكره قياما وقعودا ، وأن يكون ذلك هو شغله الشاغل وهمه الوحيد ، وأن يظل خائفا منـــه ، فزعا من بطشه وقهره ، وجلا من غضبه وسطوته ، ملتجئا اليـــه فى كل حال ، مادا اليه يد السؤال ، متضرعا اليه بالحاح واقبـــال ، متطلعا الى جماله الذى هو مصدر الحسن والاحســان ومنتهى الفضل والكمال ، تملكه عاطفة البذل فى سبيله بكل ما عنــده من نفس ونفيس ، وغال ورخيص .

والذين حصروا صفات الله وحقوقه ، فى حق الحاكميـــة والسلطة العليا وحده ورأوه أصل الحقوق الالهية ، وأول المطالب الربانية ، أخاف أن يكون قد صدق عليهم قول الرب تبـــارك وتعالى : « وما قدروا الله حق قدره » ... ان القرآن الكريم قــد استخدم التفصيل والتوسع فى ذكر الصفات واثباتها ، بالعكس

(١) سورة الحشر : ٢٢ — ٢٤ .

من الفلسفات القديمة التى استخدمت التفصيل والتدقيق فى نفى الصفات ، واذا كان لابد من ذكرها لجأت الى الاجمال والايجاز ، يقول شيخ الاسلام ابن تيميه : « ان أسلوب القرآن المجيد هو النفى المجمل والاثبـات المفصل »(١) ... انه اكتفى فى النفى بقوله القاطع « ليس كمثله شىء » أما فى الاثبـات فيختار ذلك الأسلوب التفصيلى العجيب الذى مر مثاله مقتبسا من سـورة الحشر ، وذلك لأن الحب العميق والانجـذاب الكامل ، والعشق المتيم ، لا يتأتى بدون الاطلاع على الصفات اطلاعا دقيقـا ، والاحاطة بها احاطة شاملة ، وتتجلى مظاهر هـذه الصفات فى حياة الأنبياء وأعمالهم وسيرتهم وسلوكهم ، ولا سيما فى أعمـال سيد الأنبياء وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، وتعاليمه وتربيته ، وفى كيفية صلاته وقيامه ، وفى دعائه والتجائه ، وابتهاله وتضرعه ، وانابته واخباته ، وحبه وحنينه ، وتشوقه لذات الله ، وامعانه فى الذكر والعبادة ، والاستراحة اليهمـا ، والتـذوق والتحلى بهما . كما تتجلى فى حيـاة صـحابته الكرام واتباعهم العظام ، والبررة والصالحين والعلماء الربانيين فى الأمة .

وكان ذلك كله ناشئا من انهم لم يكونوا يؤمنون بالله كالحاكم الأعلى والسلطان الأعلم فحسب ، بل كانوا يرونه ـ بجانب كونه

---

(١) راجع كتاب النبوءات لابن تيمية .

معبودا وربا ــ محبوبا حقيقيا ، وموضع الحب الأصيل ، ومنتهى الجلال والجمال ، والفضل والكمال .

تعريف « العبودية » و « الاله »
لدى شيخ الاسلام ابن تيمية :

وهذا شيخ الاسلام ابن تيمية ــ وهو فى مكانته من الفهم لروح الاسلام ، والتضلع من علوم الكتاب والسنة ، والبعد عن كل ما أحدث فى القرون الأخيرة ــ لا يرى الطاعة والتذلل وحدهما يوفيان حق العبودية التى هى حق الاله والرب ، تلك الطاعة والتذلل اللذان يمارسهما الانسان لمن يعتقد فى سلطته العليا وحاكميته المطلقة ، ويرضى بهما ذلك الحاكم الأعلى بدوره أيضا ... بل يشترط للعبودية بالاضافة الى الخضوع والتذلل ، غاية الحب التى تتطلب ــ بجانب الحاكمية والسلطة ــ صفات وفضائل تجعل السلطان الأعلى والحاكم على الاطلاق يستحق أن يكون موضع غاية الحب فى نظر « العبد » و « العابد » . يقول فى رسالته الشهيرة « العبودية » :

« لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهى تتضمن غاية الذل لله تعالى ، بغاية المحبة له » (١) .

---

(١) « العبودية » لشيخ الاسلام ابن تيمية ، طبع وتوزيع : المكتب الاسلامى ١٩٦٣ م ، ص : ٦.

ويقول :

« من خضع لانسان مع بغضه له لا يكون عابدا له ، ولو أحب شيئا ولم يخضع له ، لم يكن عابدا له ، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه ، ولهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب الى العبد من كل شيء وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء » (١) .

ولا يكتفى بهذا القدر ، بل يقول وهو يشرح « الاله » ويشير الى اشتقاقه :

« الاله هو الذى يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم ، والاجلال والاكرام ، والخوف والرجاء ، ونحو ذلك » (٢) .

وتدل عبارته الأخرى دلالة صريحة على أن الصلة بين العبد والمعبود ليست هى صلة الحاكم والمحكوم وحدها بل الأولى أوسع من الثانية بدرجات كثيرة ، وأجمع وأشمل ، فهى تشمل المعرفة والانابة والمحبة والاخلاص والذكر ، وما الى ذلك ، على حين يكفى للحاكم مجرد الخضوع والتذلل ، والطاعة والانقياد .

يقول :

---

(١) نفس المصدر ، ص ٧ (٢) المصدر نفسه ، ص : ١٣

« ان الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته ، والانابة اليه ومحبته ، والاخلاص له ، فبذكره تطمئن قلوبهم ، وبرؤيتــه فى الآخرة تقر عيونهم ، ولا شيء يعطيهم فى الآخرة أحب اليهم من النظر اليـه ولا شيء يعطيهم فى الدنيـا أعظم من الايمـان بـه » (١) .

ويقول وهو يتحدث عن هذه العبادة :

« ولا صلاح لهم ولا فلاح ، ولا نعيم ولا لــذة ، بدون ذلك بحال ، بل من أعرض عن ذكر ربه ، فان لــه معيشة ضــنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » (٢) .

ما أعظم الفرق وأعمقـه بين تعريف الاله هـذا ، وبين التعريف الذى يجعل الحاكمية والسلطة العليا ـ التى ترجمهـا الاستاذ المودودى نفسه بـ (Sovereign) ـ ملاك الأمر فى باب الألوهية ، واذن فمن الواضح أن هذا « الالــه الرسمى » لا يحتاج الانسان بصدده الى الحب ولا الاكثار من الذكر ، بـل يكفيه مجرد الطاعة الكاملة والولاء والاخلاص (Loyalty)

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام احمد بن تيمية ، ج ١ ، ص ٢٣ طبع ١٣٨١ هـ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٣ .

الدعوه الى التوحيد واستئصال شأفة الشرك ، كانا هـدف بعثة الانبياء وتعليمهم ودعوتهم الأساسى عبر التاريخ البشرى :

يقول الأستاذ المودودى — وهو يقرر أن الحكم والسلطة لا يقبل شيء منهما التجزئة والتقسيم : —

« فالذى يعتقد أن أمر كائن ما من دون الله مما يجب اطاعته والاذعان له ، بغير سلطان من عند الله ، فانه يأتى من الشرك بمثل ما يأتى به الذى يدعو غير الله ويسأله وكذلك الذى يدعى أنه مالك الملك والمسيطر القاهر ، والحاكم المطلق بالمعانى السياسية ، فان دعواه هذه كدعوى الألوهية ممن ينادى بالناس : « انى وليكم وكفيلكم وحاميكم وناصركم » ويريد بكل ذلك المعانى الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية » (١) .

ان هذه العبارة تنم عن أن الاشراك فى الحكم ، والاشراك فى الألوهية أو العبادة ، يتساويان ولا يتفاضلان ، بل انهما شيء واحد ، وأن طاعة أحد والخضوع لحكمه بالمعانى السياسية شرك ، كشرك من يعبد أحدا غير الله (فى دائرة ما بعد الطبيعة) ويتقدم اليه بالدعاء ، ويتقرب اليه بالنذر والذبح ، والخوف والرجاء ...

---

(١) « المصطلحات الأربعة فى القرآن » ص ٣١ — ٣٢ .

ويبدو أن الاستاذ المودودى لا يعنيه الا الدعوة الى الطاعة السياسية لأحد ، والخضوع لسلطانه ، والاذعان لحاكميته ، ورد حق التشريع اليه ؛ وعلى ذلك تتركز جهوده الكتابية ومحاولاته القلمية ، ومن يقصر مطالعته على هذه المقالات والكتابات وحدها ، ويعيش فيها ويتنفس فى جوها ، ويتغذى بها عقليا وفكريا ، تتأكد فى نفسه أولية الاشراك فى الحكم وأهميته طبيعيا وتتضاءل عنده شناعة الاشراك فى العبادة — اذا لم يكن له نصيب من تعليم دينى قائم على أساس الكتاب والسنة ولم تفعل فيه العوامل والمؤثرات الثقافية والتربوية الأخرى — والاعتقاد فى أحد (فى دائرة ما بعد الطبيعة) بأنه موضع العبادة والاستعانة ، والتضرع والدعاء ، والسجود والخضوع ، وما الى ذلك من مظاهر غاية التعظيم والتقديس ، أو يرى أن ذلك كله من خصائص الجاهلية القديمة البدائية حيث كان العقل البشرى فى مرحلة الطفولة ، وكان العلم والثقافة والمدنية لا تزال فى المراحل الأولى ، وأما الآن وقد تقدم الزمان ، فأن تركيز العناية عليه ، والتصدى لمقاومته ومحاربته ، معناه اضاعة الوقت والجهد ، وجهاد فى غير جهاد ، وانصراف عن الأهم الى غير الأهم .

وبالعكس من ذلك نرى أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم فى كل زمان ومكان وفى كل بيئة هو تصحيح العقيدة فى الله تعالى ، وتصحيح الصلة بين العبد وربه ،

والدعوة الى اخلاص الدين وافراد العبادة لله وحده ، وأنه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده ، وكانت حملتهم مركزة موجهة الى الوثنية القائمة فى عصورهم ، الممثلة بصورة واضحة فى عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات ، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية « أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله ، وجعلهم متصرفين فى بعض الأمور الخاصة ، ويقبل شفاعتهم فيهم بالاطلاق ، بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكا ويقلده تدبير تلك المملكة فى ما عدا الأمور العظام(١) » .

وكل من له صلة بالقرآن ـ وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة ـ يعرف اضطرارا وبداهة أن القضاء على هذه الوثنية ، والانكار عليها ومحاربتها ، وانقاذ الناس من براثنها كان هدف النبوة الأساسى ، ومقصد بعثة الأنبياء ، واساس دعوتهم ومنتهى أعمالهم ، وغاية جهادهم ، وقطب الرحى فى حياتهم ودعوتهم ، حولها يدندنون ، ومنها يصدرون ، واليها يرجعون ، ومنها يبدأون واليها ينتهون ، والقرآن تارة يقول باجمال « وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله

---

(١) التعبير مأخوذ من كتاب « حجة الله البالغة » للامام أحمد ابن عبد الرحيم ولى الله الدهلوى .

الا أنا فاعبدون »[1] ، وتارة يقول بالتفصيل فيسمى نبيا نبيا ، ويذكر أن افتتاح دعوتـــه كان بهذه الدعـــوة الى التوحيد[2] .

وقد سمى القـــرآن عبـــادة الأوثان « الشرك الأكبـــر » و « الرجس » و « قول الزور » وشنع عليه التشنيع الأعظم ، فقال فى سورة الحج : « ذلك ومن يعظم حـــرمات الله فهو خـــير له عند ربه ، واحلت لكم الأنعـــام الا ما يتـــلى عليكم ؛ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قـــول الزور ، حنفـــاء لله ، غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنمـــا خر من الســـماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق »[3] .

اسوة الأنبياء وطبيعة النبوة :

وتلك هى طبيعة النبوة وطبيعة الدين الذى تجىء به النبوة : ان اكره شىء اليهما هى هذه الوثنية وعبادة الآلهة الكاذبة والأوثان والأصنام المنحوتة على يد البشر ، التى يسجد لها الناس ويتقربون اليها بالدعاء والتضرع والنذر والذبح ، ذلك الذى لا يجوز لغـــير

---

(1) الآية ٢٥ من سورة الانبياء .

(2) اقرأ على سبيل المثال الآيات ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ من سورة هود .. والآيات ٥١ ، ٥٤ من سورة الانبيـــاء .. و ٦٩ ، ٨٢ من سورة الشعراء .. و ٤١ ، ٤٢ من سورة مريـــم .. و ١٦ و ١٧ و ٢٥ من سورة العنكبوت .. و ٣٧ و ٤٠ من سورة يوسف .

(3) ٣٠ — ٣١ من سورة الحج .

الله ، ومن أجل ذلك حينما دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكـــة فاتحا منتصرا يتمتع فيها بما لم يكن يتمتع به من ذى قبل ، من الكلمة النافذة والأمر المطاع والسلطة الكاملة ، صنع اول ما صنع أنه دخل الكعبة التى كان فيها وفيما حولها ثلاث مائة وستون صنما فجعـــل يغمزها بقوس فى يده فتتساقط على وجوهها ، وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا »(١) « قل جـــاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد »(٢) .

ولم يكتف بهـــذا القدر ، بل أرســـل سراياه الى مــــواطن الأوثان حول الكعبة فحطمت كلها ، منها أمثـــال اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، التى كانت كبرى الأصـــنام المركـــزية فى الجاهلية ، كان يتوافد اليها الناس من الأنحاء يعبدونها ويسجدون لها ، ونادى مناديه بمـــكة « من كان يؤمن بالله واليـــوم الآخـــر فلا يدع فى بيته صـــنما الا كسره » ، وبعث رجالا من أصـــحابه الى القبائل فهدموا أصنامها(٣) . ويقـــول جـــرير بن عبـــد الله البجلى رضى الله عنه : « كان بيت فى الجاهلية يقال له «ذو الخلصة»

---

(١) سورة بنى اسرائيل ، ٨١ .

(٢) سورة سبأ ٤٩ راجع صحيح البخارى » باب اين ركز النبى صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح . واقرأ للتفصيل « زاد المعاد » ج ١ ص ٤٢٤ .

(٣) راجع للتفصيل زاد المعاد ج ١ ، ص ٤٣٩ .

و « الكعبة اليمانية » و « الكعبة الشامية » فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم : الا تريحنى من « ذى الخلصة » ؟ فنفرت فى مائة وخمسين راكبا فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فدعا لنا ولـ « أحمس »(١) . وقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم من اهتمامه بشأن ازالة آثار الجاهلية وشعائر الوثنية ، الى أن بنى ثقيف لما ترجوه صلى الله عليه وسلم أن يبقى صنمهم القومى « اللات » لثلاث سنين ، والحوا على ذلك حتى تنازلوا الى سنتين ، فالى سنة ، فالى شهر ، أبى كل الاباء ، وانكر عليهم أشد الانكار ، وأرسل المغيرة بن شعبة وابا سفيان ابن حرب فهدماه وبلغت به كراهيته للشرك وعبادة غير الله (فى دائرة ما بعد الطبيعة) الى أنه قال فيما قال فى مرض وفاته ولدى لحوقه بالرفيق الأعلى : « قاتل الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد »(٢) وتقول عائشة وابن عباس رضى الله عنهم « لما نزل(٣) برسول الله صلى الله عليه وسلم ، طفق يطرح خميصته على وجهه فاذا اغتم(٤) كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك: « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد —

---

(١) صحيح البخارى باب غزوة ذى الخلصة .

(٢) موطأ الامام مالك (٣) يعنى المرض .

(٤) اجتبس نفسه من الخروج من اجل شدة الحر .

يحذر ما صنعوا(١) .

مما يدل على انه صلى الله عليه وسلم كان يرى الشرك واتخاذ شعائره ، أقدم أدواء الأمم والملل ، وكان يخاف أن تعود الوثنيـة ، وتدب فيها الحياة وتستأنف النشاط ، فحذر منها أمته ، ولم يفتـه أن يـؤكد الانـذار حتى فى هـذا المـوقف الدقيق وفى آخـر عهده بالدنيا ، وأعرب عن أشد كراهيته ومقتـه لهـا ، وتأذيه بها ، وتألمه منهـا ، ومعنى ذلك ان الدنيا مهمـا تغـيرت . وأن الزمان مهما تقدم ، وأن الاسلام مهما قطع أشواطا بعيدة فى التقدم والانتشار والانطلاق ، فسيظل هذا الخطر قائما ، وعلى العلماء وأصحاب الدعوة الاسلامية والنائبين عن الأنبيـاء أن يأخـذوا حذرهم وأسلحتهم ، وان يعدوا لمقاومنه عدتهـم ، وأن لا تجـدن الهوادة عندهم منفذا فيما يتصل بهذا الجانب .

لا تزال « اللات » و « مناة » غضتين وفى طور شبابهما :

ان هذه الوثنية والشرك ــ بمعنى التأله لغـير الله ، وغاية التذلل له ، والسجود والدعاء والاستغاثة به ، والنـذر والذبح له ــ هى الجاهليةالعالميةالتى هىأقدم أدواء البشر ومواضع ضعفه وسقطته ، وهى باقية مع البشر فى جميع مراحل حياته وتطوراتها،

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى صلى الله عليه وسلم ووفاته .

وهى التى تثير غضب الله وغيرته ، وتحــول بين العبــد وتقدمه الروحى والخلقى والمدنى ، وتهبطه من أعلى الدرجات الى أسفل الدركات « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين »(١) تهبطه من درجة مسجود للملائكة الى درجة ساجد للضعيف من المخلوقات والخسيس من الموجودات .

انها هى الجاهلية التى تخنق القوى ، وتقتل المواهب ، وتقضى على الاعتماد على الله ، والاعتداد بالنفس والثقة بهــا ، وتصرف الانسان عن الالتجاء الى الله السميع البصير ، العــليم القــدير ، الجواد الوهاب ، الغفور الودود ، والاستفادة من صفاته التى لاتعد وخزائنه التى لا تنفد ، الى الالتجاء الى الضعيف الفقير ، العاجز الحقير ، الذى لا يملك شيئا ، « يولج الليل فى النهار ويولج النهارفى الليل وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم ، له الملك ، والذين تدون من دونه ما يملكون من قطمير ، ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير ، يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد »(٢) .

---

(١) الآيتان : ٤ ــ ٥ من سورة التين .
(٢) سورة فاطر ، الآيات : ١٣ ــ ١٤ ــ ١٥ .

موضوع جهاد الأنبياء وجهودهم على مدار التاريخ البشرى :

هذه الوثنية — فى دائرة ما بعد الطبيعة — بجميع اشكالها الواضحة والدقيقة ، كانت موضوع جهاد الأنبياء فى كل عصورهم وفى جميع بيئاتهم ومجتمعاتهم ، وهـو الذى أثار غضب اهـل الجاهلية ، فقالوا : « اجعل الآلهـة الها واحـدا ان هـذا لشىء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتـكم ، ان هذا لشىء يراد ، ما سمعنا بهذا فى الملـة الآخـرة ان هـذا الا اختلاق »(١) .

ومما لا يشك فيه عاقل درس تاريخ العصر النبوى ، واطلع على أخبار صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن الصحابة لم يكونوا يفهمون من هذه الآيات التى سردناها الا هذه الوثنيـة السافرة ، وعبادة الأصنام والأوثان ، وتقديس الاشخاص الماضين أو الموجودين والسجود لهم ، والدعاء منهم ، والذبح والنذر لهم ، والحلف بأسمائهم ، والتقرب الى الله بعبادتهم ، والاعتمـاد على شفاعتهم المطلقة التى لا ترد ، وطلب النفع والضر وكشف الكربه منهم ، وهذا هو المستفيض المتواتر من آثارهم وأخبارهم ومناهج كلامهم ، لا يختلف فيه اثنان .

ولا يزال هذا هو الركن الأساسى فى الدعـوات الدينيـة وحركات الاصلاح الى يوم القيامة ، وهو تراث النبوة الخـالد

---

(١) سورة ص ، الآيات : ٥ — ٦ — ٧ .

« وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون »(١) . وشعار جميع الدعاة الى الله وجميع المصلحين المجاهدين .

اما مظاهر الجاهلية الأخرى كالطاعة لغير الله ، والتحاكم الى غير الله وقبول التشريع غير الالهى ، وتسليم حكومة لا تقوم على النيابة عن الله ، وعلى أحكامه ، فكل ذلك يتبع هذه الوثنية والشرك ويأتى بعده ، ولا يجوز أن يقلل من شأن هذا الشرك الجلى المتقدم ذكره ، وأهميته ، وأن يوضع فى الهامش من منهاج دعوة او جهاد ، أو يساوى بينه وبين معانى الطاعة والحكم السياسية ، ويحكم عليها حكما واحدا ، أو يعتقد انه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المتخلفة التى ولى عصرها وانقضى دورها، لأن ذلك لا يتفق مع الواقع المشاهد ، فلا تزال الوثنية والشرك تقوم على قدم وساق بأشكالها وانواعها القديمة ، وما يصنعه الجهلة من الناس من أعمال الشرك الجلى على ضرائح الأولياء والصالحين فيه كفاية ومتنع ، فلم يتركوا شيئا من غوايات الجاهلية القديمة وضلالات الأمم الماضية ، وغلوهم فى تقديس غير الله وتعظيمه ، والسجود له ، والنذر والذبح له ، والدعاء والالتجاء اليه ، والخوف والرجاء منه ، والحياء والتأدب معه — الذى لا يستحقه الا الله سبحانه وتعالى — الا أتوا به

(١) سورة الزخرف ، الآية ، ٢٨ .

جهارا وعلانية[1] ، لك أن تشاهده بأم عينيك هنا وهناك فى كل مكان .. ثم ان هذه النظرية ، نظرية أن مظاهر الشرك الجلى المتقدم ذكره ، من خصائص الجاهلية الأولى الساذجة ، اساءة الى دعوة الأنبياء وجهودهم ، وشك فى خلود القرآن ، وأنه هو الكتاب الأخير الدائم ، ولا شك فى أن منهاج النبوة هو المنهاج الصحيح الذى ارتضاه الله تعالى ، والذى كتب له من النجاح والتوفيق والإنتاج والاثمار ما لم يكتب لأى منهاج من مناهج الاصلاح .

مكانة العبادات بعد التسليم بأن حقيقة الربوبية والألوهية هى السلطة والحاكمية :

واذا كان — عند الأستاذ المودودى — « أصل الألوهية وجوهرها هو السلطة »[2] واذا كان « كل من الالوهية والسلطة تستلزم الأخرى وأنه لا فرق بينهما من حيث المعنى والروح »[3] و « أن القرآن يجعل « الربوبية » مترادفة

---

(١) اقرأ على سبيل المثال كتب « الرد على البكرى » و « الرد على الأخنائى » لشيخ الاسلام ابن تيمية ، و « تقوية الايمان » للعلامة الشيخ اسماعيل الشهيد . وقد نقله الى العربية كاتب هذه السطور باسم « رسالة التوحيد » .

(٢) راجع « المصطلحات الأربعة فى القرآن » ص ٢٣ .

(٣) راجع نفس المصدر . ص ٢٩ .

للحاكمية والملكية (Sovereignty) »(١) فاذا لا يعود مفهوم « العبادة » — التى هى وظيفة العبد وحده — وأصلها وحقيقتها ، الا الطاعة والانقياد والولاء والوفاء (Loyalty) .. وقد اخذت النقطة المركزية للربوبية والألوهية ، وفكرتهما الرئيسية واخص خصائصهما (السلطة) ، ومفهومهما الوحيد ، وحقيقتهما الأصيلة ، كل ماخذ من ذهنه ، حتى ضعف فيما يرى هو — أو بتعبير أدق فيما تدل عليه كتاباته — شأن العبادات وأعمالها ومظاهرها وشعائرها ، التى شرعتها الشريعة ، ودعا اليها الدين ، وأحبها النبى حبا يفوق الوصف ، وجاءت عشرات من الآيات القرآنية ومئات من الأحاديث النبوية ، ترغب فيها ، وتنوه بشأنها ، وتشيد بذكر فضائلها ، وتحرض على التنافس فيها ، وتثني على المكثرين منها والمعنيين بها ، وتندد بالراغبين عنها أو المقصرين فيها .. وطبعا بدت له الشعائر التعبدية فى درجة ثانوية ، وبدا له الانهماك والتوغل فيها والمداومة عليها ، نتيجة الجهل لروح الدين ورمز عهد الانحطاط ، واخذت فكرته ودعوته هذه شدتها وحدتها حتى جعلت اسلوبه الكتابى يتسم — لدى الحديث عن الفكرة المركزية للعبادات وروحها وجوهرها ، التى لا يتجاسر أحد من أهل العلم أن ينكر أهميتها فى حد ذاتها —

---

(١) أنظر المصدر السابق . ص ٩٣ .

بما يشبه الاستخفاف بتلك العبادات المشروعة ، والاكثار من الصلاة والذكر ، وهنالك يتحول أسلوبه عن أسلوبه الكتابى الهادىء ، الى الأسلوب الانشائى الهادر .

يقول — وهو يتحدث عن عناصر العبادة (الولاء للسيد ، والطاعة له ، وتعظيمه) ويقرر أن هذه الأمور الثلاثة هى التى عبر عنها الله سبحانه بكلمة « العبادة » الجامعة — :

« استحضر فى ذاكرتك هذا المعنى « للعبادة » ثم أجب على تساؤلاتى الآتية :

ما رأيك فى الخادم(١) الذى بدل أن يذهب فيقوم بالوظيفة التى أسندها اليه سيده ، يظل قائما أمامه واضعا احدى يديه فوق الأخرى ، يتلو اسمه ملايين المرات ؟ يقول له سيده : اذهب فأد حق فلان وفلان ، لكنه لا يبرح مكانه ويسلم على سيده عشر تسليمات راكعا خاضعا ، ويستوى قائما يضع احدى يديه فوق الأخرى ، ويأمره سيده قائلا : اذهب فاقض على هاتى المفاسد ، لكنه لا يتحرك من مكانه قيد بوصة ، ويسجد لسيده

---

(١) وكلمة «الخادم» تدل على أن الاستاذ المردودى لا يرى الصلة بين العبد والمعبود والانسان والاله ، تختلف عن الصلة بين الحاكم والمحكوم . ولا فوق الصلة بين السيد والخادم والآمر والمأمور . فهو يقول فى صريح العبارة : « ومن يصنع هذا الصنيع من خدم الاله تحسبه أنت عبادا ! » .

مرة بعد أخرى ، يقول له سيده : اقطع يد السارق ، فيظل قائما ويكرر عشر مرات بصوت جميل : اقطع يد السارق ، اقطع يد السارق ، لكنه لا يتحرك ليقوم ولو مرة واحدة بمحاولة لاقامة نظام الحكم الذى يسمح بقطع يد السارق . أفهل تقول : ان الرجل يعبد سيده فى معنى الكلمة ؟ ! وانى لأعلم ما ستقوله لخادم لك وقف هذا الموقف ، ولكن ياله من عجب منك .. من يصنع من خدم الاله هذا الصنيع تحسبه أنت عبادا ، الله أعلم كم مرة يقرأ هذا المسكين أحكام الله فى القرآن الكريم منذ الصباح الى المساء ، لكنه لا ينشط من مكانه لتحقيق تلك الأحكام ، بل يستمر يصلى النفل بعد النفل ، ويسبح باسم الله على سبحة ذات الف حبة ، ويلحن فى تلاوة القرآن ، وانت ترى صنيعه هذا ، فتقول : ما أعبده وما أزهده ! وانما وقعت فريسة هذا الفهم الخاطىء لأنك لا تدرى المعنى الحقيقى للعبادة »(١) .

ومن الم بمحاولات الاصلاح والدعوة — التى لا تزال مستمرة منذ اليوم الأول حتى يوم الناس هذا — وقرأ كتابات العلماء الراسخين فى العلم وفى الدين ، أو استمع لخطباتهم ، يعلم انهم دائما دعوا الى العناية بجانب تربية الروح والحقيقة فى الصلاة

---

(١) « خطبات » — باللغة الأردية — الجزء الثالث ص ٦ ، ٧ توزيع المكتبة الاسلامية المركزية ، دهلى (الهند)

والذكر وسائر العبادات ، والى الأخذ ـ بجانب هذه العبادات ـ بجميع الأحكام الشرعية وتطبيقها فى الحياة ، والقيام بمحـاولات تنفيذها فى المجتمع البشرى ، وقد وصفوا الحياة التى لا يوافق فيها الظاهر الباطن ، والجسم والروح ، بل يخالف فيها القول الفعل ، والظاهر الباطن ، بحياة النفاق ، وظل هؤلاء الاعلام منذ الامام الحسن البصرى رحمة الله عليه الى يومنا هذا ينبهون المسلمين ، ويدعونهم دعوة حثيثة الى هذه الحقيقة ، ويقولون لهم : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » (١) لكنهم لم يتخذوا قط ـ فى التركيز على هذا الجانب الأهم ـ أسلوبا يتسـم باسـتهانة بقيمة الاشتغال بهذه العبادات والأذكار ، والاكثار من التسـبيح والتحميد والتلاوة ، ولا سيما فى هـذا العصر الذى طغت فيه المـادة على الروح ، وبدأت تقل تلقائيا أهمية الاكثـار من العبادة والذكر ، وأصبح الأسلوب المـادى والسـياسى يفرض سيطرته على الحياة ، فكم كان يتحتم التحفظ ، وملاحظـة الدقة والحكمة لدى الحديث عن مثل هذا الموضوع الدقيق الحساس فى

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٨ .

مثل هذا الوضـــــع المكهرب ، فان النــــــائم يكفيه أدنى هزه للسقوط .

اشادة القرآن بذكر الاكثار من
اعمال العبادة ، وترغيبه في ذلك :

وعلى العكس من ذلك نجد القرآن الكريم يرغب مرة بعـد أخرى فى الاكثار من هذه الأعمال ، ويثنى على المكثرين منهـا ، وينوه بشأنهم ، ويلهج بذكرهم فى معرض المدح والثناء :

« تتجافي جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعـا ومما رزقناهم ينفقون » (١) .

« والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما » (٢) .

« والمستغفرين بالأسحار » (٣) .

« والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » (٤) .

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة واصـيلا »(٥) .

ويمكنك أن تقدر مدى استحسان الله سبحانه لصفة الذكر

---

(١) الآية ١٦ من سورة السجدة
(٢) الآية ٦٤ من سورة الفرقان
(٣) سورة آل عمران ١٧
(٤) سورة الأحزاب ٣٥
(٥) سورة الأحزاب : ٤٢ .

والانابة والاخبات والاقبال على ذات الله ، من أنه يحث رسوله الحبيب محمداً صلى الله عليه وسلم افضل الخلائق — الذى عن طريق تعاليمه نالت الأمة أنواع سعادة الدنيا والآخرة — على أن يبالغ فى تقدير المتحلين بهذه الخصال وتفضيلهم ، يقول :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، وكان أمره فرطا »(١) .

ويقول فى موضع آخر :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين »(٢) .

أما الأحاديث الصحيحة التى تنوه بفضيلة الاكثار من النوافل والذكر والتلاوة ، فهى فى عدد يستعصى على الاستقصاء، وللقارىء الكريم أن يراجع الكتب والأبواب المفردة لبيان ذلك فى كتاب من كتب الصحاح الستة ، وليقرأ خاصة حديث التقرب

---

(١) سورة الكهف : ٢٨

(٢) سورة الأنعام ٥٢ .

بالنوافل (١) ليدرك مدى فضيلة النوافل وكبر شأنها ؛ أما الاكثار من الذكر فيكفى الحديث التالى :

« عن عبد الله بن بسر رضى الله عنــه أن رجــلا قال : يارسول الله ان شرائع الاســـلام قد كثرت على فأخبرنى بشىء أتشبث به . قال : لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله » (٢) .

الاعتقــاد بمجــرد حاكميــة الاله
وسلطة الرب ، وتأثيره النفسى :

ان هذا المنهج من التفكير ، وهذا الأسلوب الكتابى ــ الذى قد أسلفنا نماذج منه ــ يشكل خطر ظاهرة خطيرة ــ وقد بدت آثارها ــ وهى أن الذين يستقون معلوماتهم الدينية من نبع هذا التفسير للاسلام وحده ، وتقتصر دراستهم للاسلام على هــذه الكتابات وحدها ، ستعود علاقتهم مع الله ضيقة ، محدودة جافة ، جامدة رسمية ، فارغة من الكيفيات الداخلية ، التى مطلوب من المؤمن أن يتكيف بها ، ولا سيما اذا جاء الضغط مرارا وتكرارا على أن الهدف الجذرى من بعثة الأنبيــاء ، وأن غــاية تعاليمهم ومنتهى أعمالهم ، هو احداث التغيير فى هذه الحياة الدنيا المحــدودة ،

---

(١) وهو الحديث الذى رواه الشيخان فى صحيحيهما « لايزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أكون سمعه الذى يسمع به «الخ».
(٢) رواه الترمذى .

والقيام بالانقلاب الصالح ، وتأسيس الحضارة البشرية على الأسس الصحيحة ، واذا جاء التركيز على هذه الناحية بشدة وحدة ، وحماس وقوة ، وبأسلوب يجعل تصورات الحب الالهى ، والرضا الربانى ، والفلاح الأخروى تتضاءل ، فمن الطبيعى ومما يتفق والعقل والمنطق والقياس ، أن يحيد ركب السعى والعمل عن جادة الايمان بالغيب ، والحنين الى الآخرة ، وطلب رضا الله ، والتفانى فى حبه ، تلك الجادة التى وضعه عليها الأنبياء عليهم السلام ، الى درب طلب الحكم والعز والغلبة والوصول الى الحكم ، وبالتالى الى المادية المجردة .

اقرأ المقتطفات الآتية لكى تدرك بعض الشىء أى نوع من القلوب والأذهان سيصوغها هذا القالب من التفكير :

١ — « ان الاسلام يهدف أصلا الى تخريج جماعة من الصالحين تقوم ببناء المدنية الانسانية على أسس من الخير والفلاح » (١) .

٢ —. « من أجل تأسيس هذه الحضارة والمدنية فى الأرض بعث الأنبياء عليهم السلام تترى »(٢) .

---

(١) «نظرة فاحصة على العبادات الاسلامية» (باللغة الأردية) الجزء الأول ، ص ٧٥ ، توزيع : « دار الاشاعة نشأة ثانية » حيدر آباد .

(٢) « التجديد واحياء الدين » (باللغة الأردية) توزيع مكتبة الجماعة الاسلامية ، دار الاسلام « بتهان كوت » بنجاب ، ص ٢١.

٣ — « فغاية مهمة الأنبياء — عليهم السلام — فى الدنيا هى الحكومة الالهية وتنفيذ نظام الحياة — بجميع أجزائه — الذى جاءوا به من عند الله »(١) .

ويقول فيما بعد هذه السطور :

« من أجل ذلك حاول الأنبياء احداث الانقلاب السياسى ، فاقتصرت جهود بعضهم على تهيئة الأرض ، كسيدنا ابراهيم عليه السلام ، وقام بعضهم فعلا بحركة الانقلاب ، ولكن عملهم قد توقف دون أن يتحقق تأسيس الحكومة الالهية كسيدنا المسيح عليه السلام ، وبعضهم قد وصلوا بهذه الحركة الى منزل النجاح ، كسيدنا موسى عليه السلام ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم »(٢) .

هل العبادات والأركان الأربعة الاسلامية ، هى مجرد وسائل ؟

أضف الى ذلك أن المؤلف الداعية ، تتملك عليه هذه « الفكرة المركزية » مشاعره ، وتستولى عليه استيلاء يجعل جميع العبادات الاسلامية وأركان الاسلام الأربعة (الصلاة ، والصوم ، والزكاة والحج) تبدو له وسائل وذرائع الى تلك

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٢ .

الغاية ، وتدريبا لها ، وتمرينا لها ، وتمرينا عليها ، قـد صرح بذلك مرات ومرات ، يقول فى موضع :

« هذه هى الغاية التى من أجلها فرض الاسلام عبادات الصلاة والصوم ، والزكاة والحج ، والتعبير عنها بالعبادة لا يعنى أنها هى العبادة ليس غير ، بل معنى ذلك أنها تعد الانسان لتلك العبادة ، فكأنها مقررات تدريبية لازمة لها » (١) .

بيان القرآن الصريح وترتيبه الصحيح :

ان العبارة المذكورة أعلاه تدل دلالة واضحة على أن العبادات المعينة المشروعة (الصلوات الخمس) فى الواقع وسائل الى غاية أخرى ، هى الطاعة وتأسيس الحكومة الالهية ، واعادة التنظيم الى الحياة ، على حين ينص القرآن الكريم على أن الجهاد والحكومة وسيلة و « اقامة الصلاة » هى الغاية (٢) ، ولندع القرآن يقرر ما هى الغاية وما هى الوسيلة ، اقرأوا معى

---

(١) « نظرة فاحصة على العبادات الاسلامية » الجزء الأول ص ١٣ .

(٢) ولا يمنع كون الصلاة والعبادات والأركان الاربعة مقاصد مطلوبة ، من ذكر أسرارها ، وحكمها وفوائدها فى الحياة الاجتماعية ، وقد سلك علماء الاسلام هذا المسلك فى كتبهم كالغزالى والخطابى وعز الدين بن عبد السلام والشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى ، وسار سيرتهم المؤلف فى كتابه « الأركان الاربعة فى الاسلام » .

الآيات التالية من سورة الحج :

« اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا : ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » (١) .

شهادة اسوة الرسول والذوق النبوى :

من الحقائق التى لا تقبل الجدال والنقاش أن « الوسائل » لا تكون علاقة المرء معها الا علاقة عادية متحددة فى نطاق الضرورة، ومن الطبيعى أن يراها مرحلة انتقالية مؤقتة ، ومن هنالك فلا يفكر فى أن يتقدم فيها ويتفوق ، ويصل الى مدارج الكمال ، ولا تثور فى نفسه عاطفة التذوق والالتذاذ بها ، والاطمئنان اليها ، واذا فيعجز الانسان الذكى فى تحديد معانى الاحاديث — وادراك قيمتها واهميتها — التى تصف كيفية صلاة النبى صلى الله عليه وسلم بما يلى : « ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من

(١) سورة الحج ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

البكاء »(١) . و « جعلت قرة عينى فى الصلاة »(٢) . وقوله صلى الله عليه وسلم لسيدنا بلال رضى الله عنه : « يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها »(٣) . و « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر صلى »(٤) .

ولنظرة على القرآن الكريم تدل دلالة صارخة على أن العلاقة مع الله ، والعبودية ، والعبادات المعينة (الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج) مطلوبة من العبد رأسا حيث يسأل عنها يوم القيامة ، ويستحق العقاب لو تركها او اهمل فيها ، يقول القرآن الكريم وهو يصور الحوار مع الذين استحقوا النار : « ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض من الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين، حتى آتانا اليقين »(٥) .

ويقول فى موضع فيما يتصل بالكافرين :

« فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب الى أهله يتمطى »(٦) .

---

(١) رواه أبو داؤد والترمذى .
(٢) رواه النسائى .
(٣) ، (٤) رواه أبو داؤد
(٥) سورة المدثر ، الآيات : ٤٢ — ٤٧ .
(٦) سورة القيامة ، الآيات : ٣١ — ٣٣

هذه الآيات تــدل صريح الدلالة على أن العبــادات وأركان الدين ، هى حجر الزاوية فى نظام الدين كله ، يؤاخذ عليها العبد ويحاسب يوم القيامة ، أما الأمور الأخرى ــ كاقامة الحــكومة الالهية وتأسيس المدنية الاسلامية على اسس الخير والفــلاح ــ فهى وسـائل ، وفى درجة ثانوية فى الدين .

التأثير النفسى لاعتبار العبادات والأركان وسائل :

ان الوســائل ــ كما أسلفت ــ لا يعنى بها الانسان الا بقدر الضرورة ، فلا يشــغف بها ، ولا ينهمك فيهــا .. واذا كانت العبادات ــ حتى الصلوات الخمس المفروضة ــ مجرد وســائل وذرائع فما معنى ــ يا ترى ــ طول قيامه صلى الله عليه وســلم وطول صلاته فى جوف الليل « حتى تورمت قدماه(١) » وما معنى ترغيبه فى الاكثار من النوافل وتبشيره بأنها تقرب العبد الى ربه(٢) وتنويهه بأهمية انتظار الصـــلاة بعد الصـــلاة ، وتعبيره عن ذلك

---

(١) روى الشيخان والترمذى والنسائى عن المغيرة بن شعبة أنه « قام النبى ــ صـــلى الله عليه وآله وســلم ــ حتى تورمت قدماه » .

(٢) اقرأ الحديث « لا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل الخ » الذى رواه الشيخان .

بـــ « الرباط »(١) وادراجه الرجل الذي « قلبه معلق بالمساجد »(٢)
في أولئك السعداء الذين « يظلهم الله في ظله يوم لاظل الا ظله »
وقوله عليه السلام : « عليك بكثرة السجود» (٣) وفوق ذلك كله
وصف القرآن الكريم المؤمنين بالكلمات ذات الدلالات العميقة البارعة
« والذين يبيتون لربهـــم سجدا وقياما » و « تتجافى جنوبهم عن
المضاجع » مما يدل على أن هذه العبادات ليست وســـائل مجردة
الى اقامة الحكومة الالهية ، والطـــاعة والتنظيم والحكم ، بـــل

---

(١) أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم! قال : اسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا الى المســـاجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله : امام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمســـاجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : انى أخاف الله ، ورجل تصدق بصـــدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليـــا ففاضت عيناه ، (متفق عليه) .

(٣) جاء مرويا عن ثوبان وأبى الدرداء رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عليك بكثرة الســـجود ، فانك لا تسجد لله سجدة الا رفعك الله بها درجة ، وحط عنـــك بها خطيئة » (رواه مسلم ، والترمذى ، وابن ماجة ، والنسائى ، وأحمد فى مسنده) .

انها غاية منشودة وأعمال مقصودة بذاتها ، وان كان لا بد من وصفها بالوسائل ، فانها وسائل التقرب الى الله والفوز برضاه .

ومن نتيجة هذا الأسلوب من التفكير انه يجعل المرء لا ينبعث فى نفسه الشعور بالصلة القلبية بالعبادات ، ولا يتحرك لانشاء الروح والكيفية الباطنية فيها ، ولا تثور فى قلبه عاطفة الحصول على صفة الخشوع والخضوع ، والاخبات والاستحضار ، ودوام الذكر والاخلاص ، والايمان والاحتساب ، ولا يرى الحاجة الى هذه الكيفيات الباطنية والأخلاق الايمانية و « الاحسانية » ، ولا يحسب حسابا لقيمتها وغنائها ، فضلا عن أن يفكر فى الحصول عليها ، والتفوق فيها ، واحراز قصب السبق فى مجالها ، وان يبحث عن أئمة هذا الفن والاخصائيين فى هذا الطب ، فيستفيد من تجاربهم ، ويعمل بوصاياهم ونصائحهم الخاصة بهذا الموضوع .

وقد كانت شبه القارة الهندية فى القرون الأخيرة اكبر مركز للعارفين والربانيين الذين كانوا دعاة مخلصين الى انشاء الروح والحقيقة فى العبادات ، وشحن بطارية القلب بالاخبات والانابة ، وشفع الأعمال بالاخلاص والاحتساب ، وقد خرجوا فى الاصلاح والتزكية والاحسان أئمة ومحققين انتفعت بهم أنحاء

بعيدة من العالم الاسلامى ، واقطار كانت مهد العلوم الاسلامية ومركزها .

والأستاذ المودودى نفسه يضطر أن يعدل — حينما يتعرض لهذا الموضوع — عن اسلوبه المعتاد الممتاز بالجدية ، فينفث قلمه ما يختلف كل الاختلاف عن كتاباته الأخرى ، فحين يتحدث عن الجهود الاصلاحية والمآثر التجديدية التى قام بها الامام أحمد بن عبد الأحد السرهندى (المعروف بمجدد الألف الثانى) المتوفى ١٠٣٤هـ ، والامام أحمد بن عبد الرحيم ولى الله الدهلوى (م١٠٧٦هـ) وأتباعهما ومن خلفهما فى الدعوة والاصلاح والتجديد يقول عن « التصوف » الذى ظلوا يعضون عليه بالنواجذ طيلة حياتهم ويدعون اليه الناس :

« فكما أن الشىء الحلال مثل الماء يحرم على المريض اذا أضره ، فكذلك هذا « القالب » (١) ، وجب تركه — على رغم كونه مباحا — وذلك لأنه حبب عن طريقه الى المسلمين « الأفيون » فما أن يقترب اليه هؤلاء المرضى المصابون بالداء العضال ، الا ويتذكرون هذه الحبيبة التى تيمتهم ، والتى دامت تنومهم قرونا

---

(١) اشارة الى « التصوف » .

طويلة (١) .

اسطورة البطالة والاستسلام

والفرار عن معترك الحياة :

وبصرف النظر عن حقيقة « التصوف الاســلامى » ومدى اتصاله بالكتاب والسنة (٢) ، وأن هذا المصطلح الذى حـــدث وشاع فى القرن الثانى فما بعده ، قد جنى على حقيقته ومقاصده ، وأن الأصل هو التعبير القرآنى « التزكية » الذى ورد فى مقاصد البعثة ، فى سورة آل عمران ، وفى سورة الجمعـــة ، والتعبير المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو (الاحســـان) الذى ورد فى الأحاديث الصحيحة ، والانكار على ما أحدثه المتأخـــرون الخاضعون لفلسفات العجم ، وبصرف النظر كذلك عما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع ، وما ذهب اليه شيخ الاسلام ابن تيمية من التحقيق والتنقيح ، وما جاء فى كتابه (مدارج السالكين) لتلميذه وحامل علومه العلامة الحافظ ابن قيم الجوزية ، فلا يتسع المجال فى هذه العجالة للحديث فى هذا الموضوع ، ولســنا فى موقفه

---

(١) « التجديد واحياء الدين » ص ٧٣ — ٧٤ .

(٢) للاستاذ المودودى كلام جيد نوافقه عليـــه فى حقيقـــة التصوف الاسلامى ، والفرق بينه وبين الفقه ، راجع كتـــابه .. .. « مبادىء الاسلام » عنوان « التصوف » ص ١١٧ — ١١٩ ، الطبعة الثانية ، مكتبة الشباب المسلم .

الدفاع عن هذه الجماعة .

بصرف النظر عن كل ذلك ، نستعرض ما نسبه الاستاذ المودودى الى هذه الجماعة من البطالة ، والاستسلام ، والفرار عن معترك الحياة ، ونزنه فى ميزان العلم والتاريخ ، ونعرضه على محك التحقيق ، فان العلم أحق بالاحترام من الأشخاص والأفراد ، وقد ورد فى القرآن صريحا « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » (١) وسيكون البحث بحثا تاريخيا مجردا ، بعيدا عن كل عصبية ، ونزعة شخصية .

ان الاستاذ المودودى آمن كحقيقة بديهية ثابتة لا تقبل عنده جدالا ولا نقاشا : بأن « التصوف » عبارة عن البطالة والكسل والجمود ، والفرار عن معترك الحياة ، والانسحاب عن ميدان الكفاح والنضال ، والتراجع عن معركة الحق والباطل ، بل التفاهم مع القوى الباطلة وممالئتها فضلا عن الاستسلام والخضوع لها ، وكلاهما يستلزم احدهما الآخر ، لا يفترقان أبدا ...

---

(١) المائدة : ٨ .

يقول فى موضع :

« هل هناك دليل واقعى فى الكتابات الصوفية على أن هؤلاء الشيوخ — الذين تنمى اليهم هذه المناهج الصوفية — كانوايضعون فى اعتبارهم « اقامة الدين » بأوسع معانيها ، وهل هناك دليل على أنهم انما اتخذوا هذه المناهج من اجل تخريج الرجال لهـذا الغرض ، وهل قام الرجال المتخرجون فيها — ولو مرة — بهـذا العمل ؟ » (١) .

غيض من فيض :

واجابة على هـذا التساؤل ، سوف لا أتوغل فى الثروة التاريخية الغنية المكثفة ، ولا أنتقى منها أسماء الكثرة الكاثرة من رجال الجهاد والكفاح ، والدعوة والعزيمة والاصلاح ، وقـادة حركات الثورة والانقـلاب ، الذين كانوا يجمعون بين السـيف والمصحف ، والعقل والعاطفة ، وبين التسبيح فى المسـجد والبيت فى ظلام الليل ، والتكبير فى ساحة الجهاد على صهوات الخيل ، ولا يهابون السجون والمعتقلات ، والمشانق والمحاكمات ، وقد جابهوا القوى الباطلة برجال أعدوهم اعـدادا وأحسنوا تربيتهم ... بل نكتفى بعرض نموذجين من كتـاب الاستاذ نفسه « التجديد واحياء الدين » وهما : الامام السيد أحمـد بن عرفان

---

(١) « رسائل ومسائل » (بالأردية) الجزء الثانى ، ص ٦٠٢

الشهيد ، والشيخ اسماعيل بن عبد الغنى بن ولى الله الشــــهيد (ش ١٢٤٦ هـ) اللذان قال فيهما : « ان هذين الشيخين قد غذيا هؤلاء المرضى من جديد ذلك الغذاء الذى قد عهد أنه يضر ضررا مبيدا فى مثل هذا المرض » وان « عملية البيعة كانت تصــاحب حركة السيد أحمد الشهيد » ... يقول معترفا بتأثير السيد أحمد الساحر الملموس ، ودوره فى التغيير والانقلاب :

١ ــ « انه نهض بعبء اصلاح عامة الخلق دينا وخلقــــا وسلوكا ، وحيثما بلغ تأثيره ، حدث تغير هائل فى الحياة جــدد ذكرى عهد الصحابة الكرام رضى الله عنهم .

٢ ــ انه أعد عدته للجهاد على نطاق واسع لم يكن سهلا ميسورا فى اوائل القرن التاسع عشر فى بلد منحط كالهنــد ، تجلت فيه مواهبه التنظيمية النادرة ، وأوحت اليه ألمعيته البالغة ان يتخذ المنطقة الشمالية الغربية من الهند منطلق عمليته ، لأنها كانت بدون شك أكثر ما تكون ملاءمة لهذا العمل باســـتراتيجيتها وموقعها الجغرافى والسياسى ، وتقيد هذا الجهــــاد بصميم تلك المبــادىء الخلقية والقوانين الحربية التى يتميز بها المجــاهد فى سبيل الله عن المحارب المادى ، وبذلك فهو مثل امام العـــالم من جديد روح الاسلام الحقيقى ، ولم يكن يبتغى من وراء جهــاده

عرضا من الدنيا او تشييد ملك ودولة ، أو انتصار لعصبية قومية، او غرضا من الأغراض الدنيوية ، بل كان جهاده خالصا لوجه الله الكريم، **ولم يكن يهدف الا الى انقاذ خلق الله من حــكم الجاهلية وتأسيس نظــام الحكم الذى يرضـــاه الخالق ومالك الملك ،** وبدأ الحرب من اجل هذا الغرض على الطريقة الاسلامية ، فدعا أولا الى الاسلام او الجزية ، ثم باشر الحرب بعد اتمام الحجة ، والتزم التزاما دقيقــا بالقوانين الحربية المتحضرة التى علمهــا الاســلام ، لم يتعرض لظلم أو وحشية او اضطهاد ، كلما دخل قرية دخلها كمصلح لا كمفسد ، ولم تكن جنوده تحمل معها خمرا، ولم تكن تصاحبها الجوقة الموسيقية ، ولا طابور المومسات ، ولم يكن معسكره مصائد الفجرة ، ولم يحدث أن مر رجال جنده بمنطقة فأصبح أهلها يشكون الغائلة على مالهم وحرمهم وحقيقتهم ، كانت رجاله رهبانا بالليل وفرسانا بالنهــار ، يخشون الله ويخــافون حساب الآخرة ، قائمين على الحق فى كل حال ، سواء أجر عليهم القيام عليه خسارة او جلب لهم ربحا ، لم يتخاذلوا اذا انهزموا ، ولم يتجبروا ويتكبروا اذا انتصروا .

٣ ــ « والفرصة القليلة التى اتيحت له للحكم فى منطقــة صغيرة ، اقام فيها نفس الحكومة التى يقال لها « الخــلافة على منهاج النبوة » فامارة ساذجة متقشفة ، ومساواة وشــورى ،

وعدل وانصاف ، وتنفيذ للحدود الشرعية ، واخذ للمـــال بالحق ، وانفاقه بالحق ، وانتصار للمظلوم وان ضعف ، وانتقام من الظالم وان قوى ، واستشعار لخوف الله فى الحكم ، وادارة السياسة على أساس الأخلاق الصالحة ، وجملة القول انه مثل من جديد ذلك الحكم الذى حكمه — فى زمن بعيد — الصديق والفاروق رضى الله عنهما » (١) .

أفلم تكن جهود الشهيدين وجهادهما فى سبيل ((اقامة الدين)) ؟ :

وها هنا يمكن أن نتساءل — بكل أدب واحترام — : أفلم يكن الهدف الذى من أجله قام السيد احمد وصاحبه العلامة اسماعيل ابن عبد الغنى الشهيدان بهذه المحاولات كلها ، أو لم يكن ما احرزه من نجاح فى اصلاح الأخلاق والسلوك ، واحداث التغير الهائل فى الحياة ، واعداد الرجال للجهاد ، والقيام بالجهاد وفق المبـــادىء الاسلامية الأصيلة ، وتأسيس نظام الحكم المرضى لدى الخـــالق مالك الملك ، واقامة الحكومة التى كانت على نموذج الخـــلافة فى عصر الراشدين ، أفلم يكن ذلك كله محـــاولة « اقامــــة الدين »(٢) ؟ وهل قام بهذه المآثر الا اولئك الذين كانوا أئمـــة

---

(١) « التجديد واحياء الدين » (بالأردية) ص ٧٠ — ٧١ .
(٢) وأرجو القاء نظرة ممعنة على السطور المخطوط عليهـــا التى لا تشرح الا « اقامة الدين » .

عن التزكية والاحسان يدعون الى الربانية الصافية ، والتربيـة الروحية البعيدة عن كل بدعة وخرافة .

وذلك طبيعى ومنطقى تماما ، وما يقرره علم النفس والتربية فانه لا يضطلع بهذا « العمل الجليل » الا ذلك الذى تحرر كليـا من عبادة النفس والهوى ، وتخلص تمـاما من براثن الأمراض الجاهلية كـ « حب الدنيا » و « حب الحيـاة » و « كراهيـة الموت » تلك التى تشير اليها الآية الكريمة « يود أحدهم لو يعمر ألف سنة » ، وأصبح حنين وشوق الى لقاء الله والفوز برضاه ، والوجد والهيام ، والحب والحنان ، حتى كأنه يقول بلسان حاله :

غـدا الاقى الأحبـة   محمـدا وحـزبه (١)

وأرى جديرا أن أنقل بهذه المناسبة ما سبق لى أن قلتـه فى مقال لى فى معرض الحديث عن حب هؤلاء الربانيين وشوقهم الجامح للجهاد والشهادة :

« الحقيقة أن هذه المجاهدات والرياضات ، وتزكية النفس والصلة بالله ، تنشىء فى الانسان حالة عجيبة من الشوق والوجد، والحب والحنان ، تتغلغل فى احشائه ، وتستقر فى أعماقه ، حتى

---

(١) تلك الكلمات قالها سيدنا بلال رضى الله عنه وهو فى حالة الاحتضار يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وقد رويت أشباهها عن كثـير من العارفين وعباد الله الصالحين .

تراه ينشد بلسان حاله ، ويقول :

« انى لا أملك شيئا افديك به ، الا هذه الحياة التى أعرتنى اياها ، فهى منك ولك ، ومن فيضك وفضلك » .

فنهاية المطاف في هذه الرحلة الروحية والسلوك الطويل ، هى حب الشهادة ، والغاية الأخيرة من هذه المجاهدة والرياضة هى الجهاد .

ان اليقين والحب هما جناحان لصقر الجهاد والاجتهاد يحلق بهما فى السماء ، انه لا يستطيع أحد أن يترفع عن أهواء نفسه ، وعاداته ومألوفاته ، ومصالحه ومنافعه ، وأغراضه وشهواته ، ولا يمكن لأحد أن يترفع عن المستوى السافل الذى أشار الله اليه بقوله : « ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه » الا اذا تجلى فيه اليقين والحب ، فأصبح كالبرق الخاطف فى الليل البهيم ، أو كالشعلة المتأججة التى لا تخمد نارها ولا يهدأ أوارها .

ان تجارب الحياة الطويلة تدلنا على أن المعلومات والدراسات، أو القوانين والأشكال الفارغة لا تستطيع أن تثير فى الانسان أدنى رغبة فى الايثار والتضحية ، فضلا عن الفداء بمهجته وروحه، انه لا بد له من صلة عميقة راسخة ، ولذة روحية ، والحرص على فائدة معنوية تصغر فى عينيه الفوائد المادية العاجلة ولعل الشاعر أنشد فى هذا الحال ، أو صور هذا الموقف اذ قال :

فحيهلا ان كنت ذاهمة فقد حدى بك حادى الشوق فاطو المراحلا
وقل لمنادى حبهم ورضاهم اذا ما دعا ، لبيك الفا كواملا(١)

وذاك هو السر فيما نراه من وجود شخصية فذة قوية ، على رأس كل حركة للجهاد والكفاح ، نفخت فى المجاهدين روح الحماسة واليقين ، وحملت هذه الشرارة الى صدور المؤمنين الآخرين ، حتى شقت عليهم حياة الهدوء والنعيم والترف ، واصبحوا لا يطيقونها ، وهانت عليهم حياة الشهادة والجهاد ، والبطولة والتضحية ، وعزت عليهم الحياة كما عز على غيرهم الموت ، وذلك هو النموذج الكريم المفقود ، والامام المنشود المقصود الذى اشار اليه « اقبال » فقال :

« ان الامام الحق وامام العصر ، هو من يبعث فيك المقت والكراهة للحاضر والموجود ، يريك وجه الحبيب فى مرآة الموت ، فينغص عليك الحياة ، ويبعث فيك الشعور بالخسارة ، فيبعثك بعثا جديدا ويسن حديدك بالفقر ، فتصبح سيفا بتارا لا يبقى ولا يذر »(٢)

---

(١) من أبيات وردت فى كتاب زاد المعاد لابن القيم فى فصل الجهاد .

(٢) من مقال « بطولة وكفاح ، لا بطالة ولا استسلام » المعرب من الأردية بقلم الاستاذ محمد الحسنى ، المتدرج فى كتاب « ربانية ، لا رهبانية » .

على رأس كل حركة للجهاد والتضحية

شخصية روحيــة قــوية :

وليقدم أحد ازاء ذلك مثالا واحدا لمحاولات « اقامة الدين » تحقق على يد شخصية بعيدة عن الاعتناء بالباطن وتزكيــة النفس والصلةالعميقة بالله بل متنكرة لكل ذلك ومعارضة اياه ، وها هو ذا تاريخ الاسلام والمسلمين الماضى بين أيدينا نعرفه نحن والأســتاذ المودودى وكثير وكثير من رجال العلم والثقــافة والدراســة ، فليدلنا أحد على حركة جهــاد وكفاح وتجــديد واصــلاح ، كان قائدها وليد مجرد ذكائه ودراسته ، ومعلوماته ومطالعته ، وتأمله وامعانه ، ما « مسته » تربية دينية روحيــة ، ولا تزكية ربانية قوية(١) .

وعلى العكس من ذلك نــرى أن من قاد هذه الأمــة فى أشد ساعاتها وأحرج مواقفها من الاحتضار والانهيار ، وحينمــا تغلبت عليها الأوضاع الفاسدة ، أو دهمتها الليالى القاتمة ، أو تداعت عليها الأمم ، وبدا التغيير محالا ، هم رجال الحب واليقين ،

---

(١) ويمكن تسمية بعض المصلحين الجانبيين الذين مثلوا دورا لا يستهان بقيمته فيما يتصــل بالدعوة والتبليغ واصــلاح العقائد والكفاح ، والتجديد الاسلامى ، ويستدل بذلك على عدم عموم هذه الكلية واطلاقهــا ، ولكنهم كانوا يتمتعــون بروح « الاحســان » والصلة بالله وتزكيــة النفس ، وذلك هــو المطلوب ، ليس المنهج الخاص « الروتينى » لتحصيل هذه النتيجة ، فتبقى الكليــة على عمومها واطلاقها .

ليس غير(٢) .

« لما هجم التتار على العالم الاسلامى ، وداسوه تحت أقدامهم ، وتقلص ظل الخلافة العباسية ، وقضى على حكومة «خوارزم شاه» التى كانت الحكومة الاسلامية الوحيدة فى ذلك العصر ، استولى اليأس القاتل على العالم الاسلامى كله ، وعلموا أن الانتصار عليهم ضرب من المحال ، وترددت على السنة الناس « اذا قيل لك ان التتر انهزموا فلا تصدق » هنالك برز فى الميدان بعض رجال العزيمة وأصحاب القلوب ، ولم ييأسوا من هذه الأوضاع ، واستمروا فى مهمتهم وجهادهم ، حتى أسلم بعض ملوك التتار على أيديهم ، ودخل الناس فى دين الله افواجا .

ولما اتجهت حكومة « أكبر » — فى الهند الى اللادينية والالحاد اتجاها سافرا ، وأراد « أكبر » — وكان من أكبر الملوك الذين عرفتهم الهند ، وأقواهم — أن يطمس على معالم الاسلام وملامحه الواضحة وميزاته البارزة ، بجميع ما عنده من وسائل ومواهب وطاقات ، وقد اجتمع عنده جمع من الأذكياء وذوى الكفاءات النادرة يعينونه على هذا الباطل ، ولم يكن هناك ضعف أو هرم فى الدولة يشير الى زوالها ، أو يدل على

---

(١) ومن شاء فليقرأ كتابنا « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام ليدرك صدق ما نقول .

ثورة يتأجج أوارها ، وكان العلم والمنطق والقياس الظاهر ، لم يكن يصدق أنه سيقع هناك تغيير سار أو تحول بارز فى الحكومة والشعب .

هنالك قيض الله أحد عباده للاصلاح والتجديد ، فحمل راية الثورة بمفرده ، وبدأ فى ثورة داخلية بقوة ايمانه ويقينه ، وعزمه وتوكله ، وروحانيته واخلاصه ، حتى أصبح كل وارث للحكم المغولى أحسن من سابقه ، ثم تربع أخيرا على هذا العرش السلطان محى الدين « أورنك زيب عالمكير » الملك الفاضل الصالح المسلم الغيور الذى يندر نظيره فى تاريخ الحكومات الاسلامية ، وكان رائد هذه الثورة المباركة ، امام الطريقة المجددية الشيخ أحمد السرهندى »(١) .

وكذلك نرى أن الذين هبوا لمقاومة القوى الاستعمارية منذ القرن التاسع عشر على الأقل الى منتصف القرن العشرين ، واشعلوا فى القلوب شعلة الجهاد ، ونفخوا فى المجتمع الاسلامى روح الكفاح والثورة ، والشجاعة والاستماتة ، والحرية والاستقلال ، والايثار والتضحية ، والحماسة واليقين ، والتفانى

(١) العبارة التى بين الهلالين مأخوذة من كتاب « ربانية لا رهبانية » فصل « بطولة وكفاح ، لا بطالة واستسلام » .

والمغامرة ، واعجزوا القوى الغربية الكبرى ـ بعدد ضـئيل من رجالهم وعتاد قليل من امكانياتهم ـ وسدوا عليها الطرق ، وضيقوا عليها الخناق ، وأنقذوا أوطانهم من أن تظل لقمة سائغة وفريسة طيعة لها لمدة لا يعلمها الا الله ، كلهم كانوا من طراز هؤلاء الربانيين الذين جمعوا بين مجاهدة النفس وجهاد الأعداء ، وكما جاء فى وصف سلفهم وسابقيهم « بالليل رهبان وبالنهار فرسان » .

الأمير عبد القادر الجزائرى :

« ومنهم الأمير عبد القادر الجزائرى الذى رفع راية الجهاد فى الجزائر مقابل الفرنسيين ، وأطلق الشرارة الأولى فيها ولم يهدأ له بال من عام ١٨٣٢ الى ١٨٣٧ م حتى أقض مضاجع الفرنسيين ، وقد أثنى مؤرخو الغرب على شجاعته ، وعدله ورفقه ، وعلمه وفضله ، يتحدث عنه الأمير شكيب أرسلان ، فيقول :

« وكان المرحوم الأمير عبد القادر متضلعا من العلم والأدب ، سامى الفكر ، راسخ القدم فى التصوف ، لا يكتفى به نظرا حتى يمارسه عملا ، ولا يحن اليه شوقا ، حتى يعرفه ذوقا ، وله فى التصوف كتاب ، سماه « المواقف » فهو فى هذا المشرب من الأفراد الأفذاذ ، ربما لا يوجد نظيره فى المتأخرين »(١) .

---

(١) « حاضر العالم الاسلامى » ج ٢ ، ص ١٧٣ .

ويذكر كيف كان يقضى وقته ، وكيف كانت أيامه فى دمشق ؟ فيقـــول :

« وكان كل يوم يقوم الفجر ، ويصلى الصبح فى مســـجد قريب من داره فى محلة العمـــارة لا يتخلف عن ذلك الا لمرض ، وكان يتهجد الليل ويمارس فى رمضـــان الرياضة على طريقـــة الصوفية ، وما زال مثالا للبر والتقوى والأخلاق الفاضلة ، الى أن توفى رحمه الله سنة ١٨٨٣ م »(١) .

شيوخ الطريقة النقشبندية فى ساحة الجهـــاد والاصـــلاح :

وفى عام ١٨١٣ م ، لما هجم الروس على طاغســـتان(٢) ، واستولوا عليها ، لم يقم فى وجههم الا هؤلاء الشيوخ النقشبنديون ، وحملوا راية الجهاد ، وطالبوا بأن يقضى فى قضايا المسلمين بالشرع الاسلامى ، ويكونوا أحرارا فى تطبيق الشريعة فى معاملاتهم . يقول المرحوم الأمير شكيب ارسلان :

« وتولى كبر الثورة علماؤهم وشيوخ الطريقة النقشـــبندية

---

(١) « حاضر العالم الاسلامى » ج ٢ ، ص ١٧٣ .
(٢) طاغستان تقع على الساحل الغربى من بحر الخزر ، أكثر اهلها مسلمون اذا ضمت اليها القفقاز الشمالى يتراوح عـــدد المسلمين بين المليونين وثلاثة ملايين نسمة .

المنتشرة هنــاك ، وكأنهم سبقوا سائر المسلمين الى معرفة كون ضررهم هو من أمرائهم الذين اكثرهم يبيعون حقوق الأمة بلقب « ملك » أو « أمير » وتبــوء كرسى وسرير ، ورفــع عــلم كاذب ولذة فارغة باعطاء أوسمة ومــراتب ، فثاروا منــذ ذلك الوقت على الأمراء وعلى الروسية حاميتهم ، وطلبوا أن تكون المعاملات وفقا لأصول الشريعة ، لا للعادات القديمة الباقيــة من جاهليــة أولئك الأقوام ، وكان زعيم تلك الحركة « غازى محمــد » الذى يلقبه الروس بـــ « قاضى ملا » وكان من العلمــــاء المتبحرين فى العلوم العربية ، وله تأليف فى وجوب نبذ تلك العادات القديمــة المخالفة للشرع ، اسمه : « اقامة البــرهان على ارتداد عرفاء طاغستان » .

وفى عام ١٨٣٢ م اســتشهد الغازى محمد ، وحمــل لواءه خليفته « حمزه بك » وجاء بعده الشيخ « شامل » وتســلم زمام القيادة ، وكان كما يقول المرحوم الأمير شكيب : « صورة للأمير عبد القادر الجزائرى ، وكان قد انتقل من المشيخة الى الامارة » .

واستمر الشيخ شامل فى جهاده ضد روسيا نحو ٣٥ سنة ، وانتصر عليهم فى عدة معــارك انتصــارا باهرا ، وكان الروس قد أخذهم الرعب بشجاعته وشهامته وانســحبوا له عن بلادهم

باستثناء بعض الولايات ، وقد فتح الشيخ جميع حصونهم وقلاعهم فى عام ١٨٤٣ ، ١٨٤٤ م ، ونال غنيمـــة كبـــيرة من الأسلحة والذخيرة ، وهنالك ركزت الحكومة الروسية كل عنايتها عــلى طاغستان ، وزحفت اليها بخيلها ورجلها ، وأنشد الشعراء قصائد تثير النخوة ، وسيقت اليها العساكر اثر العساكر ، ولكن الشيخ شامل استمر فى المقاومة والجهاد عشر سنوات أخرى ، ولــم يضع سلاحه الا فى عام ١٨٥٩ م .

السنوسية ، وجهادها الأكبر فى افريقيا :

وأروع مثال لهذا الجمع بين المجاهدة والجهاد ، سيدى أحمد الشريف السنوسى ، ولقد قدر الايطاليون انهم سيفتحون برقــة وطرابلس فى خمســة عشر يوما ، ولكن القــواد الانجليز الذين مارسوا الحرب فى المستعمرات ، وفى الصحارى ، عارضوا هذا الرأى وقالوا : انه يدل على عدم تجربتهم فى هذا المجال ، فقد يمكن أن تستغرق هذه الحروب ثلاثة أشهر ، فماذا حدث ؟ لقد اســتمر القتال الى ١٣ سنة كاملة ، ولم يستطع الايطاليون فى هذه المدة الطويلة أن يخمدوا نار الثورة فيها ، والفضل فى ذلك كله يرجع الى الفقراء السنوسيين ، وامامهم وشيخ طريقتهم : سيدى أحمد الشريف ، وقد صدق الأمير شــكيب أرســلان اذ قال : « ان بطولة السنوسيين دلت على أن الطريقة السنوسية هى عبارة عن

حكومة بأسرها ، بل وهنا عدة حكومات لا تملك من الوسائل ما يملكها رجال هذه الطريقة .

ويصف الأمير شكيب ، سيدى أحمد الشريف ، فيقول :

« وقد لحظت منه صبرا ، قل أن يوجد فى غيره من الرجال ، وعزما شديدا تلوح سيماؤه على وجهه ، فبينما هو فى تقواه من الأبدال ، اذا هو فى شجاعته من الأبطال » .

السيد مهدى السنوسى وعنايته الفائقة بالفتوة والفروسية :

ان الصور الرائعة التى عرضها الأمير شكيب للزاوية السنوسية فى صحراء افريقيا الكبرى ، صورة جذابة مثيرة ، فيها دروس وعبر ، وفيها مسحة من جمال ساحر أخاذ ، ان هذه الزاوية كانت تقع فى « واحة الكفرة » وكان يديرها عم سيدى أحمد الشريف وشيخه ، السيد المهدى ، وكانت أكبر مركز روحى ومخيم حربى — بلا نزاع — فى افريقيا .

يقول الأمير شكيب رحمه الله :

« فقد كان السيد المهدى يهدى هدى الصحابة والتابعين ، لا يقتنع بالعبادة دون العمل ، ويعلم ان أحكام القرآن محتاجة الى السلطان ، فكان يحث اخوانه ومريديه دائما على الفراسة

والرماية ، ويبث فيهم روح الأنفة والنشاط ، ويحملهم على الطراد والجلاد ، ويعظم فى أعينهم فضيلة الجهـــاد ، وقد أثمـــر غراس وعظه فى مواقع كثيرة ، لا سيما فى الحرب الطرابلسية التى أثبت بها السنوسية أن لديهم قوة مادية تضارع قوة الدول الكبـــرى ، وتضـارع أعظمها جبروتا وكبرا ، وليست الحرب الطرابلســـــية وحدها هى التى كانت مظهر شجاعة السنوسيين ، بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيس فى مملكة « كانم » ومملكة « واداى » من السودان ، استمرت من سنة ١٣١٩ الى سنة ١٣٣٢ هجرية .

« وحدثنى السيد أحمد الشريف أن عمه المهدى كان عنـــده خمسون بندقية خاصة به وكان يتعهدها بالمسح والتنظيف بيده ، لا يرضى أن يمسحها له أحد من أتباعه المعدودين بالمئات ، قصدا وعمدا ، ليقتدى به النـــاس ، ويحتفـــلوا بأمر الجهـــاد وعـــدته وعتاده : وكان نهار الجمعة يوما خاصا بالتمرينات الحربيـــة من طراد ورماية ، وما أشبه ذلك ، فكان يجلس الســـيد فى مرقب عال ، والفرسان تنقسم صفين ، ويبدأ الطـــراد ، فـــلا ينتهى الا فى آخر النهار ، وأحيانا يضعون هدفا ، ويأخذون بالرماية ، حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرسانا ورماة ، لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المران ، وكان يجيز الذين يســـبقون فى الطـــراد أو يقرطسون فى الرمى ، بجوائز ذات قيمة ، ترغيبا لهم فى فضائل

الحرب ، كما أنه كان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصا عندهم للشغل بالأيدى ، فيتركون فى ذلك اليوم الدروس كلها ويشتغلون بأنواع المهن ، من بناء ، ونجارة ، وحدادة ، ونساجة ، وصحافة ، وغير ذلك ، لا تجد منهم ذلك اليوم الا عاملا بيده ، والسيد المهدى نفسه يعمل بيده لا يفتر ، حتى ينبه فيهم روح النشاط للعمل .

وكان السيد المهدى ، وأبوه من قبله ، يهتمان جد الاهتمام بالزراعة والغرس ، تستدل على ذلك من الزوايا التى شادوها ، والجنان التى نسقوها بجوارها ، فلا تجد زاوية الا لها بستان أو بستانان ، وكانوا يستجلبون أصناف الأشجار الغريبة الى بلادهم من أقاصى البلدان . وقد دخلوا فى الكفرة ، وجغبوب ، زراعات واغراسا لم يكن لأحد هناك عهد بها ، وكان بعض الطلبة يلتمسون من السيد محمد السنوسى أن يعلمهم الكيمياء ، فيقول لهم : « الكيمياء تحت سكة المحراث » وأحيانا يقول لهم : « الكيمياء هى كد اليمين وعرق الجبين » وكان يشوق الطلبة والمريدين الى القيام على الحرف والصناعات ، ويقول لهم جملا تطيب خواطرهم وتزيد رغبتهم فى حرفهم ، حتى لا يزدروا بها أو يظنوا أن طبقتهم هى أدنى من طبقة العلماء ، فكان يقول لهم : « يكفيكم من الدين حسن النية ، والقيام بالفرائض الشرعية ، وليس غيركم بأفضل منكم » وأحيانا يدمج نفسه بين اهل الحرف ، ويقول لهم ،

وهو يشتغل معهم : « يظن أهل الوريقات والسبيحات انهم يسبقوننا عند الله ، لا والله ما يسبقوننا »(١) .

الشيخ حسن البنا ، ونصيب التربية الروحية في تكوينه ، وفي تكوين حركته الكبرى :

أما الحركات الاسلامية المعاصرة ، فقد برزت فيها حركة « الاخوان المسلمين » ، وهى أعظمها تنظيما وقوة ، وهى الحركة التى حملت راية الاصلاح والجهاد فى الزمن الأخير ، ودعت الى العودة للاسلام من جديد فى العالم العربى ، وأكبر ميزاتها انها ترتبط ارتباطا وثيقا بالحياة ، ولها تأثير عميق بارز ملموس فى الحياة العامة فى الأقطار العربية كلها ، وكانت شخصية مؤسسها وقائدها الأول شخصية قوية ساحرة تجمع بين عدة جوانب ، انه كان عملاً متواصلا وسعيا دائبا ، وهمة لا يتخللها فتور ، وأملا لا يرتقى اليه يأس ، جنديا ساهرا على الثغر لا يناله التعب والعناء، وكان وراء كل هذه الخصائص والسمات عامل قوى لا يستهان به ، وهى تربيته الروحية ، وسلوكه ورياضته ، انه كان فى أول أمره — كما صرح بنفسه — فى الطريقة الحصافية الشاذلية ، وكان قد مارس اشغالها وأذكارها ، وداوم عليها مدة(١) ، وقد حدثنى كبار رجاله

---

(١) حاضر العالم الاسلامى ج ٢ ص ١٦٣ — ١٦٤ .
(٢) « مذكرات الدعوة والداعية بقلم الامام الشهيد الشيخ حسن البنا . انظر الطريقة الحصافية » .

وخواص أصحابه أنه بقي متمسكا بهذه الأشغال والأوراد الى آخر عهده ، وفي زحمة أعماله ، وقد تحدث عن حركته في المؤتمر الخامس المنعقد في ١٣٥٧ هـ ، وبين خصائصها ، فقال :

« دعوة سلفية ، وطريقة سنية ، وحقيقة صوفية ، وهيئة سياسية ، وجماعة رياضية ، ورابطة علمية ثقافية ، وشركة اقتصادية ، وفكرة اجتماعية »(١) .

علماء الهند وشيوخها في ساحة الحرب

وميدان الاصلاح والكفاح :

أما في الهند فترى هناك مزجا غريبا ، واجتماعا نادرا من هذه الربانية الاسلامية ، والقيادة الجهادية ، يقل نظيره في العالم الاسلامي ، أما السيد أحمد الشهيد وحركته ورجاله ، فحدث عن البحر ولا حرج(٢) ، فقد بلغ جمعه العجيب بين هذا

---

(١) رسالة المؤتمر الخامس : ١٨ — ١٩ ، ويراجع للتفصيل ولمعرفة تكون شخصية الشهيد الخاص كتاب « التربية الاسلامية ومدرسة حسن البنا » القيم ، للدكتور يوسف القرضاوي ، طبع مكتبة وهبه .

(٢) ومن أراد التفصيل فعليه بكتبنا « اذا هبت ريح الايمان » و « الامام الذي لم يوف حقه من الانصاف والاعتراف » وسيرة « سيد أحمد شهيد » (باللغة الأردية) و « سيد أحمد الشهيد » باللغة الانجليزية بقلم الأستاذ محي الدين عضو المجمع الاسلامي العلمي بلكهنؤ ، و « سيد أحمد شهيد » باللغة الأردية بقلم الكاتب السلفي الكبير المرحوم غلام رسول مهر .

وذاك ، وتفوقه فى كلا الجانبين الى حـد التواتر ، وأصـبح من المسلمات فى هذه البلاد ، واذا أطلعنا على أحواله وعلى أحـوال أصحابه وعلى تاريخهم ، علمنا أنه كان نفحة من بقايا النفحات فى القرن الأول ، هبت فى القرن الثالث عشر وأحيت الأرض بعد موتها، وبرهنت على أن الايمان والتوحيـد والصـلة الصـحيحة بالله ، والتربية والسلوك على منهاج النبوة ، لا يزال يصنع العجائب ، وأن التضحية والايثار والفداء من غير روحانية صافية مشرقة ، وعاطفة واصلاح قوية راسخة ، وحلم لا يتحقق ، وغاية لا تنال .

وكان من أتباعه وخلفائه أمثال السيد نصير الدين ، ومولانا ولاية على العظيم آبادى ، على قدمه من هذا الجمع النادر العجيب، وتبعهم مـولانا يحيى على ، ومولانا احمـد الله الصـادقبورى ، ومولانا محمد جعفر التهانيسرى ، ان أحاديث جهادهم ومحنتهـم ، وصبرهم على المكروه ، واحتمالهم الشدائد تذكرنا بمحنـة الامام أحمد بن حنبل رحمه الله .

وقد استمر هؤلاء الشيوخ من بعدهم فى الجهاد فى سـبيل الله ، فرأينا الشيخ الكبير الحاج امداد الله المهاجر المكى ، والشيخ الحافظ ضامن الشهيد ، والشيخ محمد قاسم النانوتوى ــ مؤسس دار العلوم ديوبند ــ ومولانا رشيد أحمد الكنكوهى ، فى ساحة

« شاملی »(۱) يقاتلون الانجليز ، ويستشهد الشيخ ضـــامن في ساحة الجهاد ، ويضطر الشيخ امداد الله الى الهجرة ، ويضطر الشيخ النانوتوى والشيخ رشيد أحمد الكنكوهى الى التستر والخفاء مدة من الزمن ، وكان الشيخ أحمد الله شاه ، والشيخ لياقت على من المشايخ الكبار الذين قادوا الجيوش لقتـال الانجليز فى ثـورة ١٨٥٨ م الكبرى ، وتولوا كبرها ، واستشهد بعضـــهم وقتـــل بعضهم شنقا .

ثم جاء بعدهم الشيخ محمود حسن الديوبندى ــ الذى لقب بحق « شيخ الهند » ــ واعد عدته لجهاد الانجليز ، واراد انشـــاء حكومة مستقلة فى الهند ، فيها الأمر والنهى للمسلمين ، ودفعـــه طموحه وهمته الى الاتصال بتركيا ، والانســـجام معهـــا على خط الثورة والجهاد ، ان الرسائل الحريرية ، والاجتماع بأنور باشا ، واعتقـــاله فى جـــزيرة « مالطة » كـــل ذلك يـــدل على علو همته ونشاطه الدائب المستمر .. وكان على قدمه تلميذه النجيب الشيخ المجاهد حسين احمد المدنى رحمه الله ، الذى ابلى بلاءا حسنا فى قيادة الثورة على الانجليز وحركة الاستقلال فى الهند ، وصدق الله العظيم : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم

---

(۱) قرية جامعة فى مديرية « مظفرنكر » فيما بين دهـــلى و « سهارنفور » فى ولاية « أترابراديش » .

من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا »(١) .

التاريخ يحكم حكما حاسما :

ان التاريخ فى الحقيقة موضوع واقعى حساس رقيق الشعور ، انه لا يؤمن بالحديث المرجم ، أو البت والابرام اللذين لا يستندان الى شهادة ووثائق تاريخية ، وأرقام وأعداد صحيحة دقيقة ، انه — لا يحابى انسانا ولا يمتنع من اصدار حكمه الحر الجرىء الصريح ، لأن المحكوم عليه كاتب كبير ، أو داعية شهير .

واجب « اقامة الدين » فى ضوء الشريعة والتاريخ :

ولا نجد هناك خلافا — فيما أعلم — فيما بين علماء الاسلام ، فيما يتصل بالسعى وراء الحصول على سلطة وقوة تمكنان من تطبيق حاكمية الله على البشر تطبيقا عمليا ، وتنفيذ أحكامه وحدوده فى المجتمع البشرى ، حتى لا تعود هناك قوة أو سلطة أو نظام أو طاعة وحكومة معارضة توقع الناس فى صراع وفتنة تشير اليها الآية الكريمة :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »(٢)

كما يجب الحصول على قوة ومكانة تملك بها الجماعة المسلمة

---

(١) العبارة التى بين القوسين منقولة من فصل « بطولة وكفاح لا بطالة واستسلام فى كتابنا « ربانية لا رهبانية » .

(٢) سورة الأنفال : ٣٩

القيام بالأمر والنهى ، ولا تكتفى بمجرد الدعوة اللسانية والترغيب البيانى فحسب ، ولذلك آثر القرآن ولسان الوحى التعبير بكلمة « الأمر » و « النهى » — على سعة اللغة العربية وغناها — وهما تتطلبان شيئا من القوة والعلو والغلبة حتى يكون الانسان فى موقف الآمر والناهى .

قال الله تعالى :

« كنتم خير امة اخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله »(١) .

« ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر »(٢) .

والحصول على هذه السلطة والقوة ، والجد والاجتهاد فى سبيله ، مطلوب من المسلمين بالآيات القرآنية والنصوص القطعية ، ولا يجوز الاهمال فيه والتقصير عنه فى حال من الأحوال ، وقد زخر القرآن والحديث بالتحذير من النتائج الوخيمة المشئومة المترتبة على ترك هذا الركن الاسلامى العظيم ، فى صورة انطماس معالم الدين وزوال شعائره ، وذل المسلمين وهوانهم

---

(١) سورة آل عمران ١١٠

(٢) سورة آل عمران : ١٠٤

وعبوديتهم ، والغاء الحدود الالهية والاحكام الشرعية ، والفوضى والاضطراب في الحياة ، والحرمان من النصرة الالهية والسعادة الدينية والدنيوية ، ومن اجل ذلك أولت الشريعة الاسلامية اقامة نظام الامارة والخلافة اهمية بالغة حتى جعلت الحياة بدونها حياة « جاهلية » وجعلت الموت فى هذا الوضع « ميتة جاهلية » ولأمر ما عنى الصحابة رضى الله عنهم بأمر الخلافة واختيار خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وامير للمسلمين يجمع شملهم ويتولى أمورهم ، على اثر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتدموه على كل أمر ، وفى سبيل الأخذ بها الى النهج الصحيح واعادتها الى مسيرتها الأولى ، جاهد سيدنا على كرم الله وجهه جهاده الشاق الطويل ، وفى سبيل اعادتها الى نصابها قاتل حسين بن على حاكم المسلمين يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ـــ رضى الله عنهما ـــ القتال الذى استشهد فيه ، وما زال فقهاء الاسلام وأولوا العزم من العلماء والمصلحين يرفعون راية الجهاد ويقودون الجيوش ، ويبذلون ما عندهم من نفس ونفيس ، فى سبيل الجهاد ، واقامة الحكم الأسلامى ، وقد تغافل عنه العالم الاسلامى فأصبح اليوم ذليلا مهانا لا قيمة له ولا رهبة ، وأصبح قصعة تداعت عليها الأكلة ـــ من الحكومات والشعوب ـــ .

لكن ذلك على عظم خطره وجلالة شانه لا يخرج من أن يكون

وسيلة عظيمة ، لغاية عظيمة يعرفه الذين درسوا تعاليم الكتاب والسنة دراسة دقيقة عميقة ، وامتازوا بالرسوخ فى العلم والاطلاع الواسع الدقيق على السيرة النبوية وعلى اخبار الصحابة ، وكان « ذوقهم العلمى » ومنهجهم الفكرى ، واسلوبهم الدعوى كله منبثقا من صميم التعاليم النبوية ، ولم يكن صدى او رد فعل لما كان يموج به عصرهم من حركات هدامة ، او دعوات مضللة ، او جاهلية عصرية .

ويجدر بى أن أنقل هنا ما قلته فى الترجمة الأردية لكتابنا « النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن » بمناسبة الحديث عن هذه الظلال التى تحدثها « ردود الفعل والتفاعل فى كتابات بعض الكتاب الاسلاميين المعاصرين » .

« ولك أن ترى ظلال ذلك التفاعل — ولا يمكن أن تراه فى بعض الأحيان بدون استخدام المكبرة — فى كتابات كثير من الكتاب والدعاة الاسلاميين المعاصرين ، فحينما لاحظوا من نجاح باهر مطرد للفلسفات الغربية والسيطرة السياسية الأوربية فى جانب ، وتدهور المسلمين وتبلبل المجتمع الاسلامى واضطرابه أو وقوعه تحت حكم الأجانب فى بلادهم فى جانب آخر ، أثار ذلك فيهم النخوة الاسلامية ، ونبض فيهم العرق القومى

الاسلامى ، ولجأوا الى دراسة الاسلام من جديد ، والى تحدى هذا الوضع المزرى ، وبالتالى الى تقديم فلسفة اسلامية ونظام اسلامى للحياة مقابل تلك الفلسفات والنظم ، وقد غشيت هذه الظلال السلبية كتاباتهم وتعبيراتهم وأساليب تفكيرهم ، يراها كل من أتيحت له فرصة دراسة الكتاب والسنة دراسة مباشرة مجردة عن التأثرات الخارجية والثقافات الأجنبية ، ويدرك مدى تأثير هذه الفلسفات والنظم الحديثة وسيطرتها القوية على هذه الكتابات ، والحركات والمنظمات ، والمدارس الفكرية الحديثة .

أما الأولون فقد تجلى حديثهم وكتاباتهم هذا الفرق بين «الغاية» و « الوسيلة » وتجلى لمن جالسهم أو عرفهم عن كثب أو تعمق فى قراءة ما صدر عن أقلامهم ، أن الرائد الذى يحدوهم والدافع الذى يدفعهم هو الايمان والاحتساب ، وأن المقياس فى جميع المحاولات والجهاد فى سبيل الحصول على القوة والسلطة ، واقامة الخلافة والامارة ، انما هو ابتغاء رضا الله ، والرغبة فى الائتساء بأسوة النبوة ، والامتثال للأمر النبوى ، واعلاء كلمة الله ، وتطبيق أركان الاسلام ، واحياء العلوم الدينية ، واقامة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ليس غير .

وقد عــرف حكيم الاســلام أحمــد بن عبد الرحيم ولى الله الدهلوى « الخلافة » فى كتابه الفريد « ازالة الخفاء عن خــلافة الخلفاء » بالكلمات الآتية :

« هى الرئاسـة العامة فى التصدى لاقامة الدين ، باحياء العلوم الدينية ، واقامة أركان الاسلام ، والقيام بالجهــاد وما يتعــلق به ــ من ترتيب الجيوش ، والفرض للمقاتلة ، واعطائهم من الفيىء ــ والقيام بالقضاء ، واقامة الحــدود ، ورفع المظــالم ، والأمــر بالمعروف والنهى عن المنكر ، نيابة عن النبى صــلى الله عليــــه وسلم»(١) .

ويقول من خلال تفسيره لهذه العبارة المذكورة أعلاه :

« فلو أردنا أن نعبر عن هاتى الشعب والشئون (التى تتضمنها الخلافة) وعن الجزئيات بالكليــات ، وعن الكليات بــكلى واحــد يشمل كلها ويكون كجنس اعلى لهذه الأنواع والأجناس جميعها ، لقلنا : انها « اقامة الدين » فهى تتضمن جميع الكليات التى تدخل فى نطاقها جميع الجزئيات(٢) .

ويقول فى صراحة :

« ونصب الخليفة واجب بالكفــاية على المســلمين الى يوم

---

(١) ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء ، ص ٢ طبعة أكاديميــة سهيل ــ لاهور (باكستان) .

(٢) نفس المصدر .

القيامة »(١) .

ثم يقول بعد تقديم الدلائل الشرعية على ذلك :

ان الله تعالى جعل القيام بالجهاد ، والقضاء ، واحياء العلوم الدينية ، واقامة اركان الاسلام ، وذود الكفار عن حوزة الاسلام ، فرضا بالكفاية ، وهذه الأمور كلها لا يمكن أن تتحقق بدون نصب « الامام » ومقدمة الواجب واجبة(٢) (يعنى أنه اذا كان هناك واجب لا يمكن أن يتحقق الا بعمل آخر ، فاذا يجب القيام بهذا العمل أيضا) ».

وأرى لزاما على ان أؤكد بهذه المناسبة أن كلمة «اقامة الدين» لا يجوز أن تجعل مترادفة لمجرد السعى وراء تأسيس « الحكومة الالهية » انها أوسع وأجمع معنى ومفهوما مما يستخدم فى كتابات كثير من الكتاب الاسلاميين المعاصرين ، فـ « اقامة الدين » تجمع بين جميع تلك الشعب التى أبانها حكيم الاسلام ولى الله فى كتابه ، ووردت هذه الكلمة فى موضع واحد من القرآن الكريم ، وذلك فى الآية ١٣ من سورة الشورى :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢
(٢) المصدر السابق

اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليـه ، الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب »(١) .

وسياق الآية تدل دلالة مؤكدة على أن المراد به هـو الدين بأجزائه وجميع تعاليمه ـ بما فيها العقائد والعبادات والمعاملات ـ وليس المراد هو مجرد الخلافة والحكومة ، والتمكن من السـلطة والحاكمية ، يقول العلامة الآلوسى فى تفسـيره الشـهير « روح المعانى » عند تفسير قوله تعالى : « أن اقيموا الدين » :

« أى دين الاسـلام الذى هو توحيـد الله ، وطاعتـه ، والايمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء ، وسـائر ما يكون العبـد به مؤمنا ، والمراد باقامته تعديل أركانه ، وحفظه من أن يقـع فيه زيغ ، والمواظبة عليه »(٢) .

وجاء بعد حكيم الاسلام الشيخ ولى الله الدهلوى ، حفيـده النابغة العلامة محمد اسماعيل بن عبد الغنى بن ولى الله ، فوضع فى هذا الموضوع كتابا مستقلا باسم « منصب الامامة »(٣) وهو كتاب فريد من بعض النواحى فى المكتبـة الاسـلامية العالميـة ،

---

(١) سورة الشورى : ١٣

(٢) « روح المعانى» ج ٧ ، ص ٥١٣ .

(٣) الكتاب بالفارسية .

وينقطع نظيره فى قوة اســتدلاله ، وعرضه ، واشــاراته الدقيقة ولفتاته البارعة .

وقد عنى عناية فائقة بهذا الركن الاسلامى الأهم الامام السيد أحمد بن عرفات الشهيد فىأوائل القرن الثالث عشر الهجرى، وقام بمحاولة الحصول على هذه السلطة ، وتهيئة الجو لذلك ، واتخاذ الوسائل والأسباب له ، محاولة منسقة منظمة على أوسع نطاق ، لا يقوم بها الا المؤمن الألمعى ، والقائد العصامى ، والامام الدينى الذى هيأه الله لهذا العمل العظيم ، ودعـا الى ذلك دعوة قوية ، بحماس وعزيمة ، واخلاص وهمة ، لا نجد نظـيره فى المـاضى القريب ولا فيما بعده فى شبه القارة الهنـدية على أقل تقـدير ، وقد صدق مترجمه الشهير الأستاذ غلام رسول مهر حينما قال فى كتابه « سيد أحمد شهيد »(١) :

« هذه صفحة من صفحات تاريخ ذلك العهد ، الذى يوصف بعهد انحطاط المسلمين فى تاريخ شبه القارة الهندية ــ الهنــد وباكستان ــ ولكن لا أخال أن هناك رجلا ينشد الحق فى مظانه ، ويدرك الصدق على حقيقته ، يتردد فى الاعتراف بأن عهدا من عهود

---

(١) كتاب موسع فى ترجمة الامام أحمد الشهيد فى أربعــة مجلدات ، مجموع صفحاتها ١٩٢١ (بالأردية) .

المسلمين الزاهرة المتقــدمة(١) لم يكن أزهــر وأليق بالافتخــار ــ مبدئيا ــ من هذا العهد ، ولا يجوز الحكم على محاولة بالنتائج والمكاسب ، وانما المعول فى ذلك على عزم الجهاد وهمة العمــل والثبات فى طريق الحق . وهــل يمكن أحدا أن يقــدم من تاريخ عهودنا الراقية نماذج لهذه العزيمة والهمة والاستقامة التى لم يقصد صاحبها بها الا الدين والدين وحده»(٢) .

والى القراء الكرام مقتطفــات من رسائله التى أرســلها الى أمراء المسلمين وملوكهم ، وكبار العلماء والمشايخ فى شبه القارة الهندية ، التى تدل على غايته المنشودة ، وعاطفته الحقيقية ، وعلى شعوره الرقيق الفياض ، الذى كان العــامل الأساسى فى جــده وجهــاده ، ودعــوته واجتهــاده ، وعلى أن الغــرض الذى كان يتوخاه من وراء محاولاته كلها ، انما هو الامتثــال للأمر الالهى وتحقيق الأمر الربانى ، ونيل رضــا الله ، وادالة الاســلام من الجاهليــة ، والانتصار للاســلام ولأهــله ، ورد اعتبــــــار المسلمين ، واحياء ما مات من السنن ، وما اندرس مــن معــالم الاسلام ، وما انطمس من شعائر الدين ، وانقاذ البلاد الاسلامية

(١) بعد القرون المشهود لها بالخير طبعا (المؤلف)
(٢) «سيد أحمد شهيد» طبعة شركة شيخ غلام على وأولاده، لاهور باكستان

من الأيدى المغتصبة الخرقاء ، وعلى انه انما يعثه على هذه الخطوة الجريئة تجريته وايمـانه بأن اقامة الدين منوطة بالسـلطة ، وان تنفيذ الأحكام الشرعية رهين بالحكم والسـلطان ، واذا فانه رهن إشـارة مولاه وطوع أمره ، ليس غير ، يقول فى رسالة لهالى رؤساء حدود الهند الشمالية وعلمائها :

« ان هذا الفقير — يعنى نفسه — ماض فى الطريق المرضى لدى مولاه بغاية من الطمأنينـة والفرح والسرور ، وقـد اعتمد على المواعيد الالهية(١) ، وجعـل طاعة أمر الله موضـع عنايته ونصب عينيـه ، ونبـذ ما سـوى الله وراءه ظهـريا ، واطبـق عينيه عما حوله »(٢) .

ويقول فى هذه الرسالة فى السطور الآتية :

« نحن عباد الله ، ومن أمة رسول الله ، وندعى أننا مسُلمون ومن أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، لما رأينا ان القرآن ينطق بهذا المعنى (أى الجهاد) وآمنا بأن الرسول صادق ، اضـطررنا أن نشد الأزر ونشمر عن ساق الجد لتحقيـق أمر الله ، وأن نركب

---

(١) يعنى مواعيـد النصرة الالهية والرضـا الالهى والأجر والثواب على هذا العمل ، التى جاء ذكرها فى الكتاب والسنة .

(٢) « سيرة سيد أحمد شهيد » (بالأردية) بقلم كاتب هذه السطور ، الجزء الأول ص ٣٨٦ .

متن السفر والهجرة ، اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم(١).

ويفصح عن حوافزه وعواطفه الأصيلة فى رسالة الى الملك سليمان والى « شترال » ويصرح بأنه يبتغى علوا فى الأرض ولا فسادا ولا يشوبه غرض سياسى ، او طموح شخصى وانما يرمى الى اجراء الأحكام الالهية واحياء السنن النبوية ، وان يأخذ الناس بأحكام الشريعة والسنة السنية فى باب الحكم والقضاء ، يقول :

« هذا الفقير لا يهمه جمع المال والثروة ، ولا يطمع فى الحكم والسلطة ، واذا كان هناك أحد من الاخوان المؤمنين يقوم باسترجاع البلاد من أيدى الكفار والمشركين ، ويعمل على اجراء أحكام رب العالمين ، ونشر سنة سيد المرسلين ، والعمل بقوانين الشريعة فى الحكم والقضاء،فان هذا الفقير قد نال غرضه، وأصاب رميته»(٢) .

وحينما يضغط على هذه الناحية يأخذ منه الحماس الايمانى كل ماخذ ، ويجيش اخلاصه ، وتتدفق قريحته ، وتنطلق قيثارة عاطفته المؤمنة ، فيخط قلمه امثال الكلمات الآتية الدافقة بالقوة ، يقول فى رسالة وجهها الى سلطان محمد خان وسيد محمد خان من

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٨٧ .
(٢) « سيرة سيد احمد شهيد » ص ٣٩١ .

ولاة « بشاور » ورؤسائها :

انى لا أقيم لتاج « فريدون » (١) وعرش « سكندر »

وزن شعيرة ، ولا أحسب حسابا لملك كسرى وقيصر ، نعم !

أتمنى أن تكون أحكام رب العالمين سارية المفعول فى معظم افراد

بنى آدم ، بل فى جميع أقطار العالم ، دون قوة تعارضها او سلطة

تمانعها ، سواء اتم ذلك بيدى أو بيد غيرى»(٢) .

ودراسة رسائله وافكاره تدل دلالة واضحة على أن الباعث

الأكبر الحقيقى على الجهاد والاجتهاد ، والنشاطات والممارسات ،

التى كان يقوم بها ، هو شعوره الاسلامى بأن جزءا كبيرا من

الشريعة الاسلامية والقوانين الالهية ، سيبقى معطلا ملغى ، بل

يعود غير ممكن التطبيق والاجراء ، اذا لم تكن حكومة تقف من ورائه،

وتتولى تطبيقه وتنفيذه ، ويصير المسلمون اذا مغلوبى الأمر ،

مسلوبى الارادة ، يصبحون قطيعا من غنم أو لحما على وضم ،

يشاهدون بأم أعينهم أن المساجد تهان وتهدم ، وشعائر الدين تمحى

وتزال ، ولا يملكون من الأمر شيئا .

يقول فى رسالته الى الرؤساء المشار اليهم :

---

(١) ملك كبير من ملوك ايران القديمة .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

« ان الأحكام الدينية التى تتعلق بالحكومة تفلت من الأيدى تماما ، اذا لم تكن حكومة ، وفساد أمور المسلمين ، وما يقع من تعرض المسلمين لأنواع الذل والاضطهاد والنكبة على يد الكفار المتمردين، ومن انتهاك للشعائر المقدسة، وهدم للمساجدالاسلامية، كل ذلك ظاهر مشاهد ملموس »(١) .

محاولات اقامة الدين مقرونة دائما بمراعاة الحكمة وفقه الدين :

لكن هذا الركن ــ أعنى محاولة تمكين الاسلام وجعله قوة حاكمة ، لها الأمر والنهى ــ من أركان « اقامة الدين » ليس كقالب حديدى لا نعومة فيه ولا مرونة ، ولا يمكنه أن يتوسع فى اى حال من الأحوال ، فالذين نثق باخلاصهم ، ورسوخهم فى العلم ، وتفقهم فى الدين ، وتشهد لهم بذلك صفحات ناصعة فى التاريخ ، ودلائل وشواهد لامعة فى صفحات الكون ، وتعلم أنهم لم يكونوا من أهل « الرخصة » بل كانوا من رجال « العزيمة » فلا بد أن نعترف بأنهم لم يتخذوا من وسائل هذا العمل العظيم ومناهج تحقيقه ، الا ما كانوا يرونه منسجما مع الأوضاع التى كانوا يعيشونها ، ولم يألوا جهدا فيما كانوا يستطيعونه ، لأن المقصود هو النتيجة لا الوسيلة ، والبناء لا الهدم ، والايجابية

(١) نفس المصدر ، ص ٣٩١ .

لا السلب ، وكيف يسوغ لعاقل أن يقول : ان هؤلاء المصلحين المجاهدين كان واجبا عليهم على كل حال أن يضعوا كل جهودهم فى هدم الأبنية ــ التى فسدت بعض أجزائها ، او أسىء استخدامها ــ ويستهلكوا فى ذلك امكانياتهم وفرصة عمرهم ، ولا يدعوها حتى يحولوها أنقاضا ، سواءا وجدوا فرصة اعادة بنائها و لم يجدوها ، فان وقفوا من الحكومات الاسلامية المحكمة التى كان حكامها والمسؤولون عنها يتلفظون بكلمة الاسلام ويعملون بكثير من فرائضه وشعائره ، ويملكون وسائل وامكانيات لا يملكها غيرهم ، موقف الاصلاح والنصح ، والتفهيم والايضاح ، دون المعارضة الكلية ، واستخدموا مبدأ « الامالة » دون « الازالة » لا يجوز لنا أن نرميهم بالاهمال الكلى فى القيام بهذه الشعبة من شعب « اقامة الدين » وباقتراف « التعاون على الاثم والعدوان » .

وكذلك لا يجوز لنا ان نتهمهم بالتقصير فى آداء هذا الواجب ، لو ركزوا عنايتهم ، وما أوتوا من المواهب العلمية والخطابية والكتابية ، وما يتمتعون به من المؤهلات الروحانية والقوة الايمانية ، على تحويل اتجاه المجتمع من الجاهلية الى الاسلام ، ومن تلغى عبادة النفس والمادة الى عبادة الله وحده ، ومن حران العصيان والاباء والطغيان ، الى الطاعة والانقياد ، حيث ان المجتمع الاسلامى الفاضل الأصيل هو التربة المعبدة الصلبة التى

تتحمل أثقل عبء ، واضخم بناء ، وتقبل القيـــادة الصـــالحة ، وبجانب ذلك ظلوا على اتصال دائم بمركز القيادة والادارة ، وبلاط الحكومة ، وقدموا الى رجال الحكومة قوانين شرعية مدونة ، لكي يأخذوا بها فى النظام المالى والقضائى والادارى ، وسخروا الحكام المعاصرين بقوة أخلاقهم وايمانهم وروحانيتهم واخلاصهم ونصـــحهم، فمنعوهم أحيانا كثيرة عن الخطوات التى تلحق الضرر بالاســـلام والمسلمين ، واخضـــعوهم بهذه القـــوة الغلابة لاجـــراء القوانين الشرعية والحدود الالهية ، ووقفوا بهم فى وجه القـــوى المحاربة للاسلام ، فكانوا سببا مباشرا فى توسيع حدود الدولة الاسلامية ، والجهاد فى سبيل الله ، ووفروا للحكومة رجالا أمناء أوفياء أكفـــاء ربوهم فى أحضانهم أعواما طوالا ، وربما كانوا واسطة فى تحـــول زمام الحكومة والقيادة من الملحدين الى المتدينين من المحـــاربين للاســـلام الى المحـــافظين على الاســـلام ، من الماحين للـــدين الى الحامين للدين ، فلا بد أن نعترف لهـــم بالفضـــل ، ونعتبرهم حاملى لواء السـعى فى ســبيل اقامة الدين ، وجنود الاصـــلاح والاحيـــاء والتجـــديد الأوفيـــاء ، ولا يحق لنـــا أن نســـقطهم من الحساب ، ونخرجهم من القائمة ، و نرميهم بالتقصير فى المسئولية، بمجرد انهم لم ينجحوا فى تأسيس حكومة الهية مثالية .

والأستاذ المودودى نفسه يضغط بكل قوة على الأخـــذ بهـــذه

الحكمة ومراعاة الظروف والأوضـــاع ، والليـــاقة واللبـــاقة حين تتطلبها الظروف وتوجبها الملابسات ، ويعبـــر عنه بـــ « الحكمـــة العملية » يقول :

« الحكمـة العملية » هى التى تفرض على الداعى أن ينظر ماهى الأسباب التى يجب ان تتخذ وسيلة الى التقدم الى الامام فى الطريق المؤدى الى الغاية ، وما هى الفرص التى يجب انتهازها ، وما هى العوائق التى يجب أن تتركز العنـــاية على ازالتهـــا توا ، وما هى المبادىء التى يجب أن تكون ذات مرونة ، وما هى المبادىء التى يجب أن يبحث فيها عن جوانب المرونة التى تتطلبها المصالح الهامة »(١) .

ويقول فى موضع آخر :

« والمراد منها (الحكمـــة العملية) بالايجاز : انه يجب أن نراعى فى تنفيذ الأحكام الشرعية واقامة الدين ، تلك الأوضـــاع التى تواجهنا لدى العمل ، وأن نغير فيما يتصل بالفتاوى والأسلوب العملى تغييرا تتحقق به المقاصد الشرعية فى معنى الكلمة ، ولا تضيع هدرا من أجل تطبيق الأحكام والمبادىء على الأوضـــاع التى لا تقبلها »(٢) .

---

(١) « تفهيمات » (بالأردية) الجزء الثالث ، ص ٩١ ــ ٩٢ تحت عنوان « مراعاة المصلحة والضرورة فى الاسلام . واصولها وقواعدها» توزيع المكتبة المركزية للجماعة الاسلامية دهلى ــ الهند
(٢) المصدر السابق ص ١٨٣ .

ويقـــــول :

« كل من يريد أن يعمـــل على اقامة الدين فعـــلا ، ســـواء أكان فردا ، أو جماعة او دولة ، فطبعا يحتاج — فى تحركاته — الى أن يراعى الأوضاع ، ويستخدم « التعقل العملى » ولا يمتنع فى هذه السبيل — اذا الحت عليه الضرورة — من أن يغير فى التدابـــير المسموح بها فحسب ، بل ربمـــا يلجأ الى أن يستخدم أمثال تـــلك الرخص التى منحتها الشريعة والتى لم يتحرج الأنبياء والصـــحابة الكرام أيضا من أن يستفيدوا منها »[1] .

فاذا ما نزلنا عند هذا المبدأ ، ووثقنا باخلاص هؤلاء الرجال وتفقههم فى الدين ، وكونهم من أهل العزيمة ، ذلك الذى تشهد به حياتهم التى عاشـــوها ، فلا معـــدى لنا عن أن نســـلم فى ضوء الشهادات التاريخية ، بأن الذين قاموا باستنباط المسائل وتوجيـــه الأمة من الأئمة المجتهدين ، والذين قاموا بتدوين الأحاديث وتحقيقها وتنقيحها من المحدثين العظام ، والذين منحوا هـــذه الأمة ثـــروة واسعة من القانون المنظم للخراج والجزية من رجـــال التشريـــع والتقنين ، والذين تفادوا بالمجتمع الاســـلامى من المـــادية الرعناء والانجراف مـــع الســـيل الجـــارف من الغفلة ، ووفـــرة الثروة والمال ، والرخاء الاقتصادى ، والرفاهية الآتيـــة من توســـــع

---

(1) المصدر السابق ١٨٩ .

الفتوحات ، والذين عصموه من عبــادة النفس والهوى والســلطة والحــكم ، والخضوع للقوة والتهالك على المــال والثــروة ، والتهافت على المنصب والجاه ، وبيع الضمير والعقيدة ، والتضحية بالمبادىء والأصول فى سبيله ، والذين قاموا « بصنع » الرجــال وتكوين السيرة والأخلاق فى مجتمع منهار مشرف على الزوال ، والذين أرصدوا رجالهم التى صنعوها فى جبهات خطرة حاسمة من رجال الاصلاح والتربية ، والذين حولوا ــ فى صــمت وهــدوء ــ أمما محاربة للاسلام أذاقت المسلمين هزيمة نكراء ، واسرا ملوكية طاغية واصحاب سلطان ونفوذ متجبرين ، لا مسلمين مســتسلمين فحسب ، بل محافظين على الاسلام ، وخــدمة بارين له من أهــل القــلوب واليقين ، ورجال الحب والحنان ، والــذين نفــذوا فى قــلوب الحكام المعاصرين بفضل ســمو أخلاقهم وروحانيتهــم ، واخلاصــهم وزهدهم وعفافهم ، فأخضعوهم للعدل والانصاف ، ولتطبيق قوانين الاسلام وأحكام الشريعــة ، وللقضــاء عــلى البــدع والمنكرات من العلماء الربانيين ، الذين آثروا هذا العمل على العزلة والخلوة والانقطاع الى الانشغال بذات الله وحــده ، وربما خاطروا فى ذلك بأنفسهم ، والذين هيأوا الأذهان والقلوب من اجل احداث الانقلاب الصالح وتأسيس الحكومة الاســـلامية على أسس صحيحة ، وربوا لذلك رجالا تربية فكرية وعمليــة ،

ووضعوا له أسسا علمية ، من أكابر رجال العلم والفكر ، هؤلاء كلهم — مهما اختلفوا فى المسالك والمذاهب ومهما غلب عليهم لقب خاص — كانوا من ذلك الركب العظيم ، السائر على هذا الدرب الكريم ، درب اقامة الدين ، فقد قاموا بهذه المسئولية فى عهدهم حسبما سمحت به الظروف الراهنة ، واقتضته المتطلبات المعاصرة، والأوضاع التى كانت تلابسهم ، ولكن أحوال بعضهم فى أضواء تاريخية ساطعة ، واحوال بعضهم وجهودهم وجهادهم ، وأفكارهم وآرائهم ، لم تحوها كتب التاريخ التقليدية أو السياسية الادارية ، بل انها توجد فى مجاميع رسائلهم ودواوين حوارهم وأحاديثهم ، والكتب التى سجلت فيها كلماتهم ومواعظهم ، التى ربما لم تطبع بعد ، ان دراسة هذه المادة الغنية تدل على انه لم يخل عصر من عصور التاريخ الاسلامى ممن قاموا بهذه المحاولة حسب الوسائل والامكانيات المتاحة ، وظل العلماء الأعلام يؤدون واجبهم ، ويرضون ربهم ، ويطمئنون ضمائرهم ، وقد وفق عدد منهم أن يبلغوا بهذا العمل الى شاطىء النجاح ونقطة الغاية ، التى لا تزال بعيدة عنها بمسافات شاسعة ، تلك الجماعات والمؤسسات التى تعمل لهذ الغرض وتحمل لافتة العمل الاسلامى او لا تحملها فى شبه القارة الهندية ، او فى ارجاء الدول الاسلامية ، ولا يدرى احد هل يكتب لها الوصول الى هذه النقطة أم لا ؟

اما السيد احمد الشهيد واصحابه الصادقون الأوفياء فقد بذلوا فى هذا الطريق كل ما كانوا يملكونه من جهد جهيــد ، ومن قدرة وقوة ، ولم يدخروا وسعا فى تجربة اى وسيلة كانت مفيدة فى هذه الغاية ، وقد صنعوا — فى نهاية المطــاف — آخــر ما كانوا يستطيعونه ، فبذلوا مهجهم وارواحهم فى سبيل الله .

وكان الشاعر الاسلامى الدكتور محمد اقبال فى أبياته الفارسية الغاية ، وقد صــنعوا — فى نهــاية المطاف — آخر ما كانوا والوفاء :

« انهم ربما يعتمدون على الحجج والدلائل والبيان المعجــز الأخاذ ، وربما يستخدمون السيوف والرماح فى ســبيل الحق ، واحيانا يرتدون الدرع تحت « الخرقة » ، وبالجمــلة ان العشاق لخاضعون للاشارة ، فيصنعون ما يتفتح عليهم ، وينكشف لهم ، فاذا ما بلى هذا العالم وفقد غضاضته ، يبدونه كى يبرزوا من هــذا الماء والطين عالما آخر يقوم على الايمان واليقين ، انهم قــوم كل أمرهم عجب فى عجب ، فقد يشترون الخسارة بالربح ، ويبيعون كل متاعهم بنظرة واحدة » (١) .

---

(١) « زبورعجم » .

كلمة لا بد منها

هذه السطور التى تقدمت بها الى القراء الكرام فى الصفحات الماضية ، والتى هى كـ « دراسات مبدئية » فيما يتصل بالعرض الجديد للحقائق والمبادىء الاسلامية ، ربما يتضايق بها أولئك الذين لا يفرقون بين « الخلاف المبدئى » و « الخصومة الشخصية » ويرون فى أدنى خلاف لوجهة نظر داعية أو عامل فى مجال من المجالات الاسلامية ، أو قائد لحركة أو دعوة (تفيد فائدة ما سياسية او اجتماعية أو دينية) اضرارا بمصالح الاسلام ، وتشتيتا لشمل المسلمين ، وانى لا انكر انه ربما استخدم الخلاف فى الرأى والمؤاخذة ، واساليب الانكار والرد ، لتحقيق اغراض سياسية او حزبية ، ولكن الحقيقة ان هذا الخلاف فى الراى والنظر ، والافصاح عنه لم يكن طريق السلف والخلف فحسب ، بل كان فى الوقت ذاته سببا كبيرا فى حفظ الدين من التحريف الجزئى ، وعصمة الأمة من الانحراف الكلى .

اما الائمة المجتهدون فهم فوق أن أضرب بهم مثلا فى أمثال هذه المناسبات ، لأنهم كانوا مجردين من كل شائبة من الانانية والاعجاب بالنفس ، والحقد والحسد ، وفتنة « المعاصرة » بل الذين يعتبرون دونهم فى الزمان والمكانة ، والعلم والقبول والشهرة ، انهم كذلك لم يحتملوا هذا الخلاف فى الرأى ووجهة النظر فحسب ، بل تلقوه بالترحاب والسرور وطلاقة الوجه ، وشكروا لناقديهم ومخالفيهم ، على مؤاخذتهم ، وقد قبله أتباعهم وانصارهم ايضا بغاية من سماحة النفس وانشراح الصدر،وتناولوه بالامعان والدراسة فى جد واخلاص ، ولم يرموهم بالعداء الشخصى أو نيل الشهرة والجاه بهذا الطعن فى شهير أو كبير ، أو الاضرار بمصالح الاسلام ، وهناك أمثلة رائعة من نقد العلماء للعلماء ، والعظماء للعظماء، يتشرف به المسلمون على مدار التاريخ، ويتجمل به تاريخ الفكر الاسلامى عبر القرون والأجيال ، ويبرهن به المؤرخ المنصف على شجاعة العلماء الأدبية ، وانهم ما زالوا يؤدون الشهادة لله ، لا تأخذهم فى ذلك لومة لائم ، ويؤثرون مصلحة الدين على كل مصلحة .

ان الاخلاص الصادق ، وعاطفة نشدان الحق ، وحب صيانة الدين عن كل شائبة من التحريف ، واعلاء كلمة الله فى الأرض ، والايمان بأن كلا يؤخذ من قوله ويرد ، الا النبى المعصوم صلى الله

عليه وسلم ، كل ذلك سيجعل الانسان لا يتضايق بهذه الملاحظات والتنقيحات ، بل سيستقبلها بصدر رحب وقلب منشرح ، لما يراها تعينه على فهم الاسلام ، وتفهيمه وصيانته ، مما سيدل على أن الغرض هو اتباع الحق ورضا الله ، لا تضخيم الشخصية أو تنميق الكلام ، أو تحبير الحديث .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب : ١٩٨٠/٣٢٠٩

الترقيم الدولى ٩٧٧ ــ

مطبعـــة المنصـــورة ــ ٣٠ شارع العطار ــ شبرا مصر ــ القاهرة

تطلب جميع منشوراتنا من :

• دار القلم الكويت

شارع السور - عمارة السور - بجوار وزارة الخارجية

ص ب ٢٠١٤٦ هاتف ٤٢٥١٦٠

